



في وادي الغلالة

منتديات المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

مكتبة عربية

إحسان عبد القدوس

الفصل الأول

دخل مصطفى الدسوقي إلى فناء كلية الهندسة دون أن يخرج في
كيانه أى إحساس بأنه طالب في هذه الكلية . . وسير بين الطلبة كأنه
يقضى ساعة فراغ في التفرج عليهم بدلا من أن يقضيها في حديقة
الحيوان متفرجا على الحيوانات . . وهو منذ البداية لم يكن مقتنعا بأن
يكون طالبا في الجامعة . . إنه ليس في حاجة إلى أى دراسة جامعية
يبني عليها مستقبله ، يكفيه دراسة أعمال المقاولات التى يقوم بها أبوه
وتحقق له الملايين . . وليس بين كليات الجامعة كلها كلية تدرس أسرار
عمليات المقاولات . . إنها مهنة تعتمد على العبقرية الذاتية . . وحتى
إن لم يرث عن أبيه عبقريته فيكفيه ضمانا لمستقبله أنه سيرث أمواله . .
فما حاجته إلى الالتحاق بالجامعة . . ولكن أباه ظل يضغط عليه حتى
أجبره على أن يكون طالبا في كلية الهندسة . . وربما منذ أن أنجبه وهو
يعده للجامعة ولكلية الهندسة بالذات . . وكان يقول له دائما أنه يجب
أن يحمل صفة يقدم بها نفسه ويعيش بها بين الناس . . فقد أصبحت
الصفة هى اللقب الذى يحمله الفرد . . وكانت الألقاب زمان تقسم
الناس إلى . . أفندى . . وبك . . وباشا . . وصاحب مقام
رفيع . . ويقاس كل فرد بلقبه . . ولكن كل هذه الألقاب قد
اندثرت . . وانقلت إلى ألقاب جديدة . . ضابط . . محام . .
مهندس . . دكتور . . أديب . . صحفى . . رجل أعمال . .
سياسى . . و . . و . . ولم يعد هذا اللقب يقوم على العمل الذى

يؤديه الفرد .. أى قد يجعل الفرد لقب مهندس وهو لا يعمل في الهندسة ولكنه مضرغ لعمليات تجارية بعيدة عن الهندسة كأن يكون صاحب شركة تصدير واستيراد .. وقد يجعل لقب دكتور أى طبيب وهو لا يعمل في الطب .. بل يعيش مضرغا للعمل في الصحافة .. أو يجعل لقباً عسكرياً .. لواء .. أميرالاي .. بكباشى .. رغم أنه ابتعد عن الجيش منذ عمر طويل وأصبح سفيراً مثلاً أو مدير شركة أو أصبح وزيراً لوزارة الثقافة .. ولكن كلا منهم يظل حريصاً على اللقب الذى وفرته له دراسته .. ويتفاخر به كصفة من صفاته .. فإذا أعجزه أن يجد لقباً يوفر له صفة ترضيه اغضب لقب « أستاذ » .. لقد وصل لقب « أستاذ » إلى مستوى لقب « أفندى » القديم يتبادل الناس كمجود تبادل الاحترام .. دون أن يحمل أى معنى للاستاذية ..

والأب كان مصمماً على أن يحمل ابنه لقب مهندس ..

وقد حاول مصطفى كثيراً أن يعيش الحياة الجامعية .. وكان في أوائل سنوات دراسته يتباهى بأن يخرج كل صباح من البيت وهو يحمل مسطرة الرسم الهندسى الطويلة العريضة .. ويحمل معها عدداً من الكتب الدراسية .. ولكنه بعد أيام قليلة هفت افتخاره بنفسه كطالب جامعى .. وبدأ يضيق بالجو الجامعى كله .. إنه لا يحس بنفسه وبشخصيته كاملة وباندفاع عقليته للحصول إلا عندما يتردد على مكاتب الشركات التى كونها أبوه .. والتى تجمع عشرات الموظفين بينهم كثير من المهندسين .. وكلهم يرحبون بشخصيته ويميطونها بالأهمية .. ربما لأنه ابن رضوان الدسوقى صاحب الشركة .. ولكنه وهو في الجامعة يحس أنه في عالم بعيد عنه .. ولا يجد شخصيته بين

الطلبة .. إنهم يعرفونه ولا يعرفون أباه .. ولكنها ليست معرفة عادية .. كأنهم يضعونه في هذا العالم البعيد عنهم .. ولذلك فالتعارف لم يتجاوز تبادل التحية من بعيد أو تبادل عبارات عابرة دون أن تتطور أى معرفة إلى صداقة تحقق أى ارتباط أو متعة المصارحة وانطلاقات الشباب ..

وكان مصطفى قد لاحظ بعض مظاهر الحياة السياسية داخل الجامعة .. إنها حياة أوسع بكثير مما كان قد لاحظ في المدارس الثانوية .. وهى حياة تعبر دائماً عن المعارضة .. يتجمعون في مناقشات سياسية حادة .. وقد يقوم أحدهم خطيباً .. وقد ينقلب تجمعهم إلى مظاهرة ضخمة .. وهو يسائل نفسه دائماً .. لماذا يعارضون ويهاجمون ، ودائماً يجيب نفسه بأن مايدفعهم إلى كل هذا الغضب هو الحرمان الذى يصل إلى السخط .. السخط على كل شيء .. ماداموا لا يملكون شيئاً .. وهو نفسه قد يكون محروماً من كثير ، على الأقل محروماً من استقرار شخصيته وآماله التى يحددها مستقبله .. ولكنه ليس ساخطاً .. ربما لأنه يملك .. أو على الأصح لأن أباه يملك .. ولذلك فقد وجد نفسه مبتعداً عن كل مظاهر النشاط السياسى داخل الجامعة .. ووصل به التباعد إلى أنه لم يعد يواظب كل الأيام على التردد على الجامعة .. ولم يعد يعتمد النجاح في كل امتحان .. إنه لا ينجح إلا إذا خطر على باله أن ينجح كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يستطيع أن يكسب في لعبة كوتشينة أو في دور شطرنج ..

وليس معنى ذلك أن مصطفى لم يكن يفهم في السياسة .. لقد كان يفهم ويستوعب بعض الأوضاع والشئون السياسية وخصوصاً

ما تمس منها أوضاع أبيه .. وعلى قدر ما يمكن أن يفهمه في سنه ..
ولكن كان واضحاً له أن ما يفهمه يختلف عما يفهمه أغلبية زملائه
الطلبة في الجامعة .. لذلك فهو منذ البداية ابتعد عن هذه الأغلبية
حتى لا يعرض نفسه لمعارك معهم .. وهم أغلبية ..

إلى أن وجد نفسه يوماً بالصدفة جالساً في بوفيه الجامعة بين اثنين
من زملائه يعرفهما ولكنها ليسا أصدقائه .. وكان أحدهما هو محيى
الدين عبد السلام .. إنه أشهر طالب في الكلية .. يمتد نشاطه إلى
كل فروعها .. وهو أكثر الطلبة كلاماً وأعلامهم صوتاً .. وكلما وقع
بمصر حدث أو مرت مناسبة من المناسبات الوطنية تجده واقفاً على أعلى
السلم المطل على الفناء يلقي خطاباً .. وقد تمر شهور طويلة دون أن
يقف كخطيب .. ولكنه دائماً بين مجموعات الطلبة .. وقد لا يجتمع
أربعة إلا وهو خامسهم .. وهو الذى يقود الحديث بينهم في أى
موضوع .. وقد يمكن اعتباره زعيماً للطلبة .. ولكنها ليست زعامة
رسمية .. أو زعامة معترفاً بها .. ربما لأنه لم يعرف عنه أنه يمثل أى
حزب سياسى أو ينتمى إلى أى اتجاه سياسى محدد .. لم يعرف عنه
أنه شيوعى .. أو من الإخوان المسلمين .. أو وفدى .. أو
ناصرى .. أو من حزب الحكومة .. أو .. أو .. إلى آخر التنظيمات
السياسية والدينية .. وهو دائماً يردد أنه مجرد صاحب رأى .. ورأيه
ينطلق من تقدير الواقع الشعبى .. ويختلف مع كل الأحزاب
والتنظيمات القائمة في هذا التقدير للواقع الشعبى .. لذلك فإن
زعامته يمكن أن تعتبر مجرد زعامة شخصية .. تتجمع كل قوتها في
شخصه .. ولكنه كان يؤكد هذه الزعامة بقدرته على اكتساب صداقة
عدد هائل من الطلبة .. وهى صداقة قد لا تتجاوز التعرف ولكنها

قادرة على اجتذابهم إلى الالتفاف حوله والاستماع إليه .. وهو الآن
طالب في السنة النهائية بالكلية أى على وشك التخرج .. ولكنه
لا يزال قادراً على اكتساب صداقة حتى الطلبة الجدد الداخلين إلى
الكلية .. وقد حاول أن يكتسب صداقة مصطفى منذ رآه .. ولكن
لم يقدّم بينهما سوى التعارف المقصور على تبادل التحية من بعيد .. فقد
كان مصطفى يمر بمراحل الابتعاد عن الجامعة بكل ما فيها .. حتى
بما فيها هذا الطالب المتزعم محيى الدين عبد السلام ..

إلى أن كان هذا اليوم الذى وجد مصطفى نفسه في جالساً في
بوفيه الجامعة مع محيى الدين عبد السلام .. وكان محيى الدين عبد
السلام كعادته هو الذى يتكلم .. وكان يقول :

— إن كل ما تتخذة الحكومة عبارة عن تنظيمات وإجراءات
مظهرية لا تغير من الواقع .. تقيم مظاهر ديمقراطية وبحكمها واقع
ديكتاتورى .. وتقيم مظاهر إنقاذ سياسى تسودها وتولاهها نفس
العقليات التى فرضت واقع الإفلاس الاقتصادى .. وترفع الأجور
والمرتبات حتى يفرح الفرد بأن يمسك في يده خمسين جنيهاً بدلاً من
ثلاثين .. وفي الوقت نفسه ترفع الأسعار من ثلاثين إلى ستين ..
كأنها كلما رفعت من مظهر ارتفاع الدخل الفردى رفعت من واقع
استنزاف هذا الدخل .. أى أن الفرد الفقير كلما ارتفع دخله ازداد
فقراً ..

ووجد مصطفى نفسه ينطلق مقاطعاً دون تعمد كأنه كلام يدور
في عقله ولا يحس به على لسانه :

— أعتقد أنه لم يعد في مصر فقراء .. أن المجتمع المصرى كله
أصبح له شكل جديد .. لم يعد يعيش نفس الفوارق الطبيعية التى

نسمع أنها كانت قائمة أيام زمان .. إن العامل أو الفلاح في أدنى مستوياتها أصبح يضع قدميه في حذاء ولا يسير وهو حاف .. وأصبح كابناء الأغنياء يرتدى البنطلون الجينز .. ويأكل الساندوتش والبيتزا .. ولا يحتاج أن يركب الحمار لأنه يستطيع أن يشتري دراجة في انتظار أن يكسب أكثر ليشتري موتورسيكلا وقد يصل إلى شراء سيارة .. أن العامل أو الفلاح الذي كان دخله اليومي لا يتجاوز القروش ارتفع إلى جنيهات وقد يصل دخله الشهري إلى مئات .. لقد أصبح الشعب المصري كله يعيش في بحور من مليارات الدولارات .. وكل هذا ليس مجرد مظهر ولكنه واقع تعيشه مصر ..

وابتسم محيى الدين عبد السلام كأنه فرح بأن شد مصطفى إلى الكلام لأول مرة يسمعه .. وقال وهو يدعى الهدوء كأنه أستاذ :

— لك حق .. إن أفراد الشعب ارتفع دخلهم إلى حد كبير .. ولكن هل ارتفع دخل الدولة ؟ .. إن المسؤولين أنفسهم يعلنون أن الدولة في حالة أقرب إلى الإفلاس .. وماذا يعنى هذا ؟ .. يعنى أن مصر تجمع شعبا غنيا وتحكمها دولة فقيرة .. والواقع الذى تمنى الوصول إليه أن تكون مصر دولة غنية لشعب غنى .. وإلا كنا نعيش مظهرا من مظاهر الغنى يتعارض مع الواقع القائم .. وهو واقع الفقر .. وقد تمكن الدولة من الحرص على هذا المظهر سنوات ولكن في النهاية سيضيق هذا المظهر ويلحق فقر الدولة بأفراد الشعب كله .. وتصبح أقرب إلى الواقعية .. أو واقعية دولة فقيرة وشعب فقير ..

وأحسن مصطفى بصورة أبيه تقفز أمام خياله .. إن أبيه وضوان الدسوقي ثرى .. ثرى جدا .. مليونير .. في حين أن الدولة المصرية

فقيرة فعلا باعتراف قادتها .. وهو يعلم أن والده نشأ فقيرا واستطاع أن يحقق كل هذا الشراء .. ويعلم من بعض ما قرأه وسمعه عن التاريخ القديم أن دولة مصر كانت غنية جدا .. أى أن النظم التى تطورت إليها المجتمع المصرى هى التى حققت ثراء أبيه كما حققت فقر الدولة .. وقال لمحى الدين فى صوت عحشرج وهو يتلع ريقه :

— لا أدرى ماذا تقصد بكلامك .. ما هو العمل ؟

وقال محيى الدين وهو لا يزال فرحا باستقبال مناقشة جديدة :

— إنها مشكلة لا تحل إلا إذا أصبحت الدولة في كيان واحد مع الشعب .. أى يكون واقع الدولة يمثل واقع الشعب .. ولكن دولتنا تهرب من الواقع بخداع الشعب والتعلق بالمظاهر .. إنها كالرجل الغنى الذى أفلس ولكنه لا يزال يصبر على أن يعيش مظاهر الغنى فيضطر إلى الاستدانة بعد أن يرهق كل أملاكه لدى الدائن .. حتى لو وجد نفسه يرهق كل أولاده .. ليكونوا خدما له .. سدادا للديون .. في حين أنه لو كان قد عاش الفقر لاضطر أن يجهد نفسه حتى يعود إلى الثراء .. أى أنه مادامت الدولة المصرية فقيرة فيجب أن يعيش الشعب هذا الفقر .. حتى لو عاد أفرادهم يعيشون حفاة الأقدام ويتمنون ركوب الحمار ولا يعرفون شيئا عن البنطلونات الجينز وزجاجات الكوكاكولا .. أى أن يرتبط الشعب بواقع الدولة وترتبط الدولة بواقع الشعب .. وهذه الحكومة أو كل نظام الحكم القائم إما أن يطور نفسه إلى أن يعيش الواقع .. وإما يجب أن تبحث عن نظام آخر .. ولا يمكن أن يحدث أى تطور إلا إذا تكلمنا نحن .. تكلمنا كثيرا ..

وسكت مصطفى دون أن يسكت الكلام من حوله ..

وكان الجالسون في البوفيه حول محيى الدين عبد السلام يزدادون عددا .. أصبحوا ستة .. ثم عشرة .. ثم أكثر من عشرة .. وهلت عليهم نهي .. وهلت كل الجالسين لها وهي تهمل معهم .. وطافت بهم تصافحهم واحدا بعد الآخر وهي تمنح كل واحد منهم كلمة وصيحة .. إنها تضح بالحيوية وانطلاق السخاء النفس .. إلى أن وصلت إلى مصطفى ومدت يدها تصافحه وهي تضحك ضحكة كبيرة قائلة :

— ما الذى جمع المليونير بالغلابة ؟؟

وضحك معها الكثيرون كأنهم يفرجون عن شائتهم فيه .. واكتفى مصطفى بأن صافحها وهو جالس في مكانه ولم يعلق بكلمة .. وانطلق محيى الدين قائلا كأنه حريص على التخفيف عن مصطفى حتى لا يهرب منه :

— كلنا في حالة واحدة نجمعنا حكومة واحدة ونثير فينا إحساسا واحدا .. وهو إحساس السخط .. وأنا أعلم أن الأغنياء لا يقلون سخطا عن الفقراء على الحكومة .. لأنها ليست حكومة الأغنياء ولا الفقراء .. إنها حكومة مظهرية ليس لها واقع .. إنها حكومة تدعى المظهر الاشتراكي كأنها في خدمة الفقراء .. وتدعى مظهر الرأسمالية كأنها في خدمة الأغنياء ، ولم تحقق سوى سخط عام يشمل الأغنياء والفقراء ..

وكانت نهي قد جلست بعيدا عن مصطفى وإن كانت جلستها في مواجهته .. وكان يرفع عينيه إليها في نظرات متباعدة .. إنه رآها قبل ذلك بين طلبة الجامعة .. لم يذهب إلى الجامعة في أى يوم إلا ورأها .. وربما لفت نظره إليها أنها كانت كثيرة الحركة .. ودائها

ملعلة .. ودائها مشغولة في حوار مع زميلات أو زملاء .. ودائها ينطق صوتها ضاحكا أو عتدا ناثرا .. ولكنه لم يهتم بها أبدا إلا كمجرد شخصية من بين الطلبة تمر أمام عينيه .. فهو لم يكن يهتم بأى طالبة أو طالب أو يترك اصطدام أحد منهم بنظرة عينه أى أثر .. وخصوصا أن نهي ليست جميلة حتى يشده جمالها .. ولولمجرد متعة المشاهدة .. وإن كانت أيضا ليست منفرة .. إن شكلها كأنه كله محصول عادى .. كشكل كيزان الذرة .. لا تبهر ولا تشدك إلا إذا كنت في منتهى الجوع .. وهو لم يحس أبدا بالجوع نحو أى فتاة ..

وكان وهو يتطلع إليها يصادف أحيانا عينها تنظران إليه وبين شفتيها ابتسامة ليست ساخرة كضحكتها التى قذفته بها وهي تصافحه .. ولكنها ابتسامة هادئة كأنها ترحب به .. ولكن ضحكتها الساخرة لاتزال ترن في أذنيه .. وكلماتها الأكثر سخرية التى استقبلته بها تسيطر على فكره .. ماذا جمع صاحب الملايين بالغلابة ..

وبعد فترة قصيرة قامت نهي مبتعدة عن جلسة البوفيه .. وابتسامتها تشد شفتيها حتى آخرها .. كأنها كانت قد ظهرت بينهم لمجرد الاطمئنان عليهم وعلى حرارة المناقشات التى تجرى دون أن تشترك فيها ..

وتردد مصطفى لحظة وهو يتبعها بعينه ثم قام كأنه انتهى إلى قرار .. وسار لاحقا بها .. ومحى الدين عبد السلام يطارده بعينه كأنه يتأذيه أن يعود إليه ..

واقترب مصطفى من نهي وهي تسير في فناء الجامعة بخطواتها السريعة المهتزة وقال لها فورا :

— يا آنسة أنا لست مليونيرا ..

ورفعت إليه ابتهامتها وقالت في بساطة كأنها لم تفاجأ به :

— على الأقل ابن مليونير .. وتعيش حياة أصحاب الملايين ..

وتعيش أفكارهم ودوافعهم التي تختلف عن أفكار ودوافع الغلبة ..

لذلك لم أكن أراك بين الغلبة ودهشت عندما رايتك بينهم ..

وقال مصطفى بعد أن زفر تنهيدة كأنه يعترف بها يعانیه :

— هناك فرق بين صاحب الملايين وابنه .. فمتعة الحياة

والإحساس بها ليست فيها يملكه الإنسان بين يديه ولكن فيها يسعى

إليه ويحققه .. وأبى سعيد في حياته لأنه سعى إلى الثراء وحققه

ولا يزال مشغولا بما حققه ويحاول أن يحقق المزيد .. ولكنى

أنا لا أسعى إلى شيء .. ولا مشغول بشيء .. إني ضحية أبى

الذى جعلنى عاجزا عن أن أسعى إلى شيء أحتاج إليه .. بأن تركنى

لا أحتاج إلى شيء .. وأنا أعتبر نفسى عاطلا أبحث عن عمل ..

أبى عملى .. إن العمل مهما كان نوعه هو الذى يقيم ويحدد

الشخصية .. وأنا ما زلت أبحث عن شخصية .. ولا يمكن أن

أكتسب شخصية المليونير لمجرد أن أبى من أصحاب الملايين ..

وقالت نهى والدهشة في عينيها :

— كلام عجيب لم أكن أنتظره منك ..

وقال في صوت ضعيف كأنه يتكلم مع نفسه :

— قارنى بينى وبين نفسك .. فأنت لست من الغلبة حتى

لو كان أبوك غلبان .. أنت ثرية بسعيك لتحقيق آمال تزخر بها

نفسك .. إنك على الأقل تحسّن بوضعك كطالبة في الجامعة وتحققين

النجاح في امتحان كل سنة .. أما أنا فأبى لا أحس بأبى طالب ..

ولا أحس بأبى دافع للنجاح في أبى امتحان .. إنك لست عاطلة عن

العمل .. وأنا عاطل .. ولذلك فأبى الغلبان تحسّ بالحياة مقبلة

عليها حتى وهى محرومة من أشياء .. ولا يحس بها ابن المليونير

ويضيق بها وهو ليس محروما من شيء ..

وقالت نهى وهى تهز رأسها كأنها ليست مقتنعة بهذا الكلام :

— إن الفرق بينى وبينك هو أن الحياة تدفعنى لأن أبى لنفسى

حياة غير حياة أبى .. وأقيم لنفسى شخصية غير شخصية أبى ..

أما أنت فإن أباك قد أقام لك الحياة التى تدفعك إلى الاستمرار بها ..

والشخصية التى يمكن أن تغريك بالاحتفاظ بها .. ويجرد الاستمرار

بهذه الحياة وهذه الشخصية يعتبر عملا فضحا يشغل كل أيامك وكل

دقيقة من عمرك ..

وقال مصطفى كأنه يزداد سخطا على نفسه :

— إن الحرص على الاستمرار ببناء قائم لا يوفر متعة البناء

الجديد .. وقد وفر أبى لنفسه متعة النجاح في الحياة بأن أقام حياة غير

حياة أبى .. وأنا أريد أن أقيم لنفسى حياة غير حياته .. حياة خاصة

بى .. وليس كل ما أتصف به فيها أبى ابن مليونير ..

وقالت نهى وهى تلفه بابتسامتها كأنها تشفق عليه :

— كن معنا دائما .. مع الغلبة .. فحياتنا تجعلنا دائما

مشغولين بها .. ولا تترك واعدة منا عاطلا أبدا ..

وكانا قد وصلا إلى الشارع خارج الجامعة .. ونهى تتجه به إلى

موقف الأتوبيس .. وقال لها بأسيا :

- إن الميونسير يملك سيارة .. هل يمكن أن يوصلك بها إلى حيث تريدن ؟ ؟

وقالت ضاحكة :

- لا .. إن الأتوبيس أسرع .. وأنا متعجلة لأصل إلى البيت قبل أن يعود إليه القلبان زوجي ..

وقال في دهشة زاعقة :

- متزوجة .. إنك ما زلت طالبة ..

وقالت وضحكتها أكبر :

- لقد كان أهل يمحشون على من البوار فزوجوني لأول

عريس ..

ولم يضحك وظل صامتا ينظر إليها بعينه الممتلئين بالدهشة ..
كانه يعيش في مفاجأة .. إلى أن جاء الأتوبيس .. وهمس كأنها لن
تسمعه :

- كل هذا الزحام !!

وقد سمعته وردت ضاحكة :

- لقد تعودت على زحام الغلاية .. ساراك غدا ..

وتركها تحشر نفسها في زحام الأتوبيس .. وهو يسائل نفسه ..
هل براها غدا .. وركب سيارته الصغيرة المركونة بين باقي السيارات
وكأنها كلها سيارات تختبئ بعضها في بعض خوفا من الاعتداء
عليها



كان مصططفى قد بدأ اليوم التالي وهو يحس أنه قد شقت في
شخصيته قناة جديدة .. قناة تجري فيها المناقشات السياسية حتى
تفيض على جانبيها ، إنه لم يكن يحظر على باله أن يدخل في مناقشات
مع زملائه الطلبة .. مهما كان موضوع المناقشة وعلى الأخص
الموضوعات السياسية .. لم يكن يحظر على باله أن من طبيعته أن
يناقش أو يتحمل الصبر على المناقشة في أى موضوع .. ولكن مرت
به بالأمس تجربة تعرض لها دون أن يقصدها .. وهي مناقشة زميله
عمى الدين عبد السلام الزعيم الجامعى المفترض وزميلته نهى ..
وكانت مناقشة سياسية .. ولكنه لم يهنا بمناقشة عمى الدين .. كان
يحس أنه يؤذى واجبا ثقيلًا متعبًا بالتعبير عن رأيه .. ولكنه كان مرتاحا
وهو يناقش نهى .. أحس معها كأنه متطلق انطلاقا طبيعيا رغم أنها
كانتا مختلفين في الرأى .. وهو في طريقه إلى الكلية رغم أنه لم يكن من
عاداته أن يذهب إليها يومين متتاليين .. إنه يحس كأنه على موعد مع
نهى .. لا يدري ماذا يجذبه إلى لقاءها .. نهى ليست جميلة إلى هذا
الحد .. ربما لأنه يشعر بأنها تعد إحساسه وعقله بحياة تنبض
بالراحة .. واتجه مباشرة إلى بوفيه الكلية .. لا أحد فيه .. ربما دفعه
الحساس لشخصيته الجديدة إلى وصوله مبكرا .. إن زحام البوفيه
لا يبدأ إلا بعد أن تبدأ الدروس المقررة .. وشد نفسه إلى حضور
الدرس الأول .. ثم قرر أن يحضر الدرس الثانى حتى لا يرمى نفسه
على البوفيه ويبدو كأنه متهاف على الجالسين فيه .. غريبة .. إنه
يستطيع أن يجلس أمام الأستاذ درسين متتاليين ويستوعب كل
ما يسمعه منه .. وقد كان من عاداته أن يتعالى على حضور الدروس
والمحاضرات حتى لا يحشر نفسه بين زحام الطلبة داخل المدرجات
الدراسية .. إن أنفاسه تضيق في هذا الزحام .. وكان قد سبق أن

حضر درسا ولم يحتمل الاستمرار فيه فقام قبل أن ينتهي الدرس وشق صفوف الطلبة وخرج من المدرج دون أن يأبه بنظرات الأستاذ التي تتابعه في احتقار وسخط .. بل إن الطلبة أنفسهم تابعوه وهم يقذفونه بكلمات جازحة وضحكات ساخرة .. مع السلامة يا ابن الباشا .. ولكنه اليوم يحتمل الزحام .. ويحتمل الجهد الذي يبذله لتركيز أذنيه على سماع درس الأستاذ .. إنه يحس أنه إنسان آخر وشخصية جديدة .. ولم يكتسب هذه الشخصية إلا بعد أن اشترك في نقاش سياسي مع الطلبة ..

إلى أن ذهب إلى الوفية .. ووجد زميله محيى الدين عبد السلام جالسا وحوله مجموعة كبيرة من الطلبة .. ووجهه مترمتم ينطلق بالسخط الثائر .. ولو أنه لم ينس أن يتشم مرجبا عندما رأى مصطفى أمامه .. ولكن أين نهى ؟؟ إنها لم تظهر بعد ، وكان محيى الدين يتكلم في صوت يرتعش بالثورة .. لقد وصلته أخبار بأن الحكومة سترفع من ثمن رغيف العيش .. وأرغفة العيش هي التي تقوم عليها حياة الشعب كله .. فإذا ارتفع ثمن الرغيف ولم يعد الفقير يستطيع شراءه فكاننا نبيد الأغلبية الشعبية من الحياة لتصبح مقصورة على أقلية الأغنياء .. ولا بد أن تدافع الأغلبية عن حياتها من اغتصاب الأقلية .. أن تحمي نفسها ولو بالقوة .. بالثورة ..

وظهرت نهى .. مبتسمة ملمعة كما رآها بالأمس .. ولم تستطع أن تصافح الجميع لكثرة عددهم .. ولكنها صافحت واحدا أو اثنين وهي تتجه نحو مصطفى لتصافحه بحرارة وبين شفثتها ابتسامة أكبر .. وقد مد لها يده في شوق ثم شد لها مقعدا لتجلس بجانبه .. وهو يقول مبتسما كأنه يلقي نكتة :

— هل أخرك الأتوبيس ؟ !

وقالت ضاحكة ضحكة خافتة وسط زحام المجموعة :

— كنت في المدرج .. ولو أن الأتوبيس يؤخرني دائما حتى أنني فكرت في أن أطالب بأن تحدد مواعيد الدراسة بموعد وصول الأتوبيسات ..

وسكتا مستمعين إلى حديث محيى الدين عبد السلام ، إنه يتحدث كأنه يلقي خطابا على الناس المتظاهرين .. ويكرر ما قاله في خطابه كلما هل عليه طالب آخر .. واستمعت إليه نهى وهي تزداد تحمها وتتبعها لكل كلمة .. إلى أن اشتد حماسها وانطلقت مقاطعة لمحبي الدين قائلة :

— إن الحكومة لا تستطيع أن ترفع سعر رغيف العيش إلا بعد أن تنشر ستات البيوت السلاتي يحملن مسئولية توفير الحياة للعائلات .. فإن الحكومة تمنح نفسها الحق في تحديد وتوزيع الأجور والمزبات .. ولذلك فهي مسئولة عن توفير مستلزمات الحياة الكاملة التي يمكن أن يوفرها الأجر أو المرنب .. ولن تستطيع أن تحمل هذه المسئولية إلا بالاتفاق مع ستات البيوت ..

وقال محيى الدين عبد السلام ردا عليها :

— يجب على الحكومة أن تسأل ستات البيوت ورجال الدين .. والحكومة لا تسأل نفسها كيف يعيش كل فرد من أفراد الشعب .. ولا تحمل نفسها مسئولية إعداد مائدة لكل مصري وتوفر له عليها العيش واللحم والأرز والملوخية .. ربما لأن أفراد الحكومة أنفسهم

موائد غذائهم .. قد يقاومون التخمة ولكنهم لا يقاومون الجوع ..
وصفق الطلبة لمحى الدين عبد السلام على كلمته ..

وتنحنح مصطفى حتى بلغت نظر محى الدين إليه ويعطيه حق الكلام ثم قال :

- إننى مقتنع بكل ما سمعته .. ولكن يجب ألا ننسى أن الحكومة رفعت الأجور والمرتبات خلال السنوات العشر الماضية إلى عدة أضعاف .. فلذا كان الدخل قد ارتفع فيمكن أن يمتثل ارتفاع سعر رغيف العيش ..

وارتفع صوت محى الدين ردا على مصطفى وإن كان قد راعى أن يكون مهذبا حتى لا يغضبه :

- المفروض أن الحكومة رفعت الدخل الفردى ليستطيع الفرد أن يشتري رغيفين بدلا من رغيف واحد .. أو يستطيع أن يشتري ما ينقصه من متطلبات أخرى .. أما إذا ارتفعت الأسعار فكان الدخل لم يرتفع .. وقد ارتفعت فعلا أسعار احتياجات كثيرة مع ارتفاع قيمة الأجور والمرتبات .. وتعمل الشعب هذا الارتفاع في مرارة لأنه كان يستطيع أن يستغنى عن هذه الاحتياجات أو يقتصد فيها .. إذا كان يريد أن يأكل اللحم في الأسبوع مرتين فإنه يستطيع أن يكتفى بأن يأكله يوما واحدا في الشهر .. أما أرغفة العيش فهو لا يستطيع أن يستغنى عنه أبدا ولا حتى يوفر مما تعود أن يأكله منه .. إن العيش هو العمود الفقري للحياة يجب أن نوفره دائما لبطن كل مخلوق .. وإذا

ارتفع سعر العمود الفقري هذا ارتفعت معه أسعار كل مطالب الحياة ..

ولم يرد عليه مصطفى مفضلا الصمت إلى أن عاد محى الدين يقول :

- إننا لن نقوم بمظاهرات اليوم ولا غدا .. يجب أن نتنظر إلى أن يصدر القرار برفع ثمن رغيف العيش فعلا .. وستنصل اليوم بكلية التجارة .. والزراعة .. والحقوق .. وبجامعة عين شمس .. وبكل من نستطيع الاتصال بهم .. حتى تعد الجامعة نفسها لمظاهرة عامة شاملة تجبر الحكومة على عدم رفع سعر الرغيف حتى لو كانت قد أصدرت قرارها به ..

واستمرت المناقشات كأنها لن تنتهى .. مناقشات ساخطة تتخللها ضحكات تخفف منها وتحرض على استمرارها .. إلى أن قامت ندى متصرفة ولحق بها مصطفى كما حدث أمس .. كأنه أصبح متعبا على اللحاق بها .. وقال لها وهو يسير بجانبها :

- هل يضايقك فعلا ارتفاع ثمن رغيف العيش حتى تشركى في الثورة التى يدعو إليها محى الدين ؟

وقالت ضاحكة :

- إننى من الطبقة التى يسمونها طبقة محدودى الدخل .. وهى طبقة الموظفين وحدهم لأنهم يعيشون على أجر أو دخل محدد سواء فى الواقع أم المستقبل .. أما باقى الطبقات فليس لها دخل محدد .. إنها تعيش أفرادها وهم يسعون إلى الحصول على دخل يرتفع بهم إلى منتهى الغنى أو يهوى بهم إلى منتهى الفقر .. وأنا أنة موظف فى

الحكومة . قد يمتثل راتبه أن يضيف قرشا على ثمن الرغبة .
ولكن هذا القرش سيضطرنا قطعاً إلى إعادة تنظيم ميزانية البيت
كذلك . قد نعيّز عن أكل المكرونة مثلاً أو نختصر من صنف الفاكهة
والبطيخ . . وقد يضطر والدي إلى تخفيض مصروفي اليومي من عشرة
قروش إلى خمسة . . لذلك يجب أن أعلن الثورة على رفع سعر الرغبة
حتى لا أحرّم من المكرونة والبطيخ وحتى لا أتعرض لتخفيض
مصروفي . .

وكان يستمع إليها وهو مبهور بمنطقها الجاد الذي تعرضه عليه
في بساطة وخفة دم . إنه لم يلتق أبداً بفتاة تهتم إلى هذا الحد بجديّة
مشاكل الحياة . . وتتبع بكل هذا الحماس سياسة الحكومة في مواجعة
هذه المشاكل . . ووجد نفسه يجهد عقله في البحث عن رد عليها
يقنعها به كما تحاول هي أن تقنعه . . ثم برقت عيائه كأنه وجد
حلاً . . وقال وكأنه مبهور بما اكتشفه :

— إن كل ما نحاوله الحكومة هو التخميف من ميزانية الدعم
الضخمة التي تدفعها لتوفير رغبة العيش . ولكنها كانت مخطئة في
أن تساوي بين الفقراء والأغنياء في هذا الدعم . الفقير يدفع قرشاً
والغني أيضاً يدفع قرشاً . وإذا كانت حكومة قادرة على الاعتراف
بالواقع ومواجعته فيجب أن تفرق بين من يستحق الإعانة ومن
لا يستحقها . . وتعدد من قيمة ثمن رغبة العيش مع تعدد
مستويات الدخل الفردي . أي تباع رغيفاً بقرش . . ورغيفاً
بقرشين . . ورغيفاً بخمسة قروش . . ورغيفاً بعشرة . . وترك كل
فرد يشتري بما يحتمله دخله الخاص دون أن يحرم أي منهم من رغبة

العيش أو يعاني في سبيل الحصول عليه ما لا يطيق . . إنها بذلك توفر
من ميزانية الدعم مع تحقيق العدالة وتغطية احتياجات الشعب . .

وقالت هي من خلال ابتسامة ساخرة :

— إنك تفكر بعقلية ابن المليونير . . وأحب أن أقول لك أنني
لا أطيق أن أكل رغيفاً بقرش بينما أرى أمامي من يأكل رغيفاً بقرشين
أو بخمسة أو عشرة كما تقول .

وقاطعها بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :

— إننا في بيتنا نأكل رغيفاً ثمنه خمسة وعشرون قرشاً نشتره من
غرفي في حاردين سبتي يبيع العيش وقطع اخاتوه . وهو عيش فينو .

وتصاحت من خلال ابتسامتها الساخرة :

— إذا كان العصابة محرومين من العيش العيوي يجب أن يحرم منه
الأغنياء . إننا نطالب بالمساواة . وإذا كانت المساواة لم تتحقق
حتى اليوم في أي جانب من جوانب الحياة فعل الأقل يجب أن نحتمط
بها بالنسبة لرغبة العيش . . ثمنه وطعمه . . إن الرغبة هو عصب
الحياة ويجب أن يحس الناس كلهم بأنهم يجمعهم عصب واحد
حتى لو كان بينهم أفراد يتسللون ويأكلون العيش العيوي يكفي
أهم مضطرون أن يأكلوه خفية ومختبئين عن أعين الأغلبية الغلبة
وقال مصطفى يهدوه :

— إنه موضوع في حاجة إلى مزيد من التفكير قبل أن نقوم
بمظاهرات وثورة ونحن لا ندرى حلاً للمشكلة نطالب به
حكومة .

وقالت هي وقد بدأت تهدأ :

— إن المظاهرات تدفع إلى المزيد من التفكير الرسمي

والشعبي ..

٩ وكانا قد وصلا إلى محطة الأنوبيس .. ووقفت هي وقد تجردت
انتسامتها من كل ما كان يشوبها من معالم السخرية .. كأن مناقشة
الموصوع بينها وبين مصطفى قد انتهت دون أن تترك أثرا يبعدها
عنه .. وقالت في انطلاقة حلوة صافية :

— هل أراك غدا ؟ ؟

وقال في رجاء :

— هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟

وقالت ضاحكة :

— لا تدفعنى إلى ركوب سيارتك وإلا أخذت أتعود عليها ..
وأخشى إن تعودت على ركوب سيارة خاصة أن أبدأ فى الاشتياق إلى
طعم العيش الفينو ..

وقفرت تلقى بنفسها داخل زحام الأنوبيس ..

الفصل الثانى

كان الخبر قد انتشر ليلتها .. خبر أن الحكومة قررت رفع سعر
رغيف العيش .. ورغم أن الخبر لم ينشر إلا أن الخبازين والبقالين
امتنعوا فى ذلك المساء عن بيع أرغفة الخبر التى لا تزال متبقية لديهم
انتظارا لبيعها بالسعر الأعلى الذى سيفرض ابتداء من صباح الغد ..
وقد سمع مصطفى هذه الأخبار وهو يتجول فى النادى الذى تعود
التردد عليه كلما حل المساء .. وقد سمعها فى كلمات عابرة لا يشوبها
اعتراض أو سخط .. إنها مجرد أخبار .. ربما لأنه ناد لا يجمع إلا
الأغنياء .. ولا يفتح أبوابه للفقراء .. وقد أراد مصطفى أن يتأكد مما
سمعه بن ضحكات النادى .. فركب سيارته واتجه بها إلى حى
بولاق .. وترك السيارة فى الشارع العمومى ثم دخل ماشيا إلى حوارى
الحى إلى أن صادف دكان يقال فاقترب من البائع وطلب منه شراء
رغيف خبز .. وقال البائع وهو يدير عنه عينيه :

— آسف يافندى .. العيش شطب ..

وسكت مصطفى وهو يلمح حواف أرغفة من العيش مكدسة فوق
رف عال من الدكان .. أهل البائع فى إحنائها .. إن أهالى حوارى
بولاق سينامون هذه الليلة جوعى دون أن يتخموا بطونهم بالخبز ..

ولم يجادل مصطفى البائع .. وابتعد سريعا .. ورأسه يضح
موصوع واحد .. إن المظاهرات ستبدأ غدا فى الجامعة .. وخطر له

أن يتصل بمحبي الدين عبد السلام الذي يتزعم الدعوة للمظاهرات حتى يذهب منه تفاصيل ما سيتم غدا .. ولكنه لا يعرف عنوانه ولا يدرى كيف يتصل به .. وكذلك نهى .. إنه لا يملك وسيلة للاتصال بها .. وعيى الدين ونهى هما وحدهما اللذان يمثلان بالنسبة له الجامعة .. كأنها كل الطلبة ..

وفكر في أن يعود إلى النادي ويجمع أصدقائه ويناقشهم في موضوع رفع سعر الرغيف .. لعله يستقر على رأى يرضيه .. ولكن أصدقائه لم يتأثروا أو يهتموا برفع سعر الرغيف .. كلهم مثله من أولاد الأغنياء .. ومشكلته أنه بدأ يختلف عنهم كلهم وبدأ عقله يشتت كأنه بدأ يحمل مسؤولية أولاد الفقراء ..

لماذا لا يعود إلى البيت ويتنظر والده حتى يعود ويستفهم منه عما دفع الحكومة إلى رفع رغيف العيش .. إن والده يعلم دائما بكل القرارات الحكومية مسبقا قبل أن تصدر .. ولكنه يعلم أن والده يوافق مقدما أيضا على كل قرار تصدره الحكومة ليقبى على تحالفه معها الذى تقوم عليه كل مشروعاته .. التحالف مع أى حكومة .. ثم إن والده رفع سعر الرغيف على نفسه قبل أن ترفعه الحكومة .. إن العائلة تأكل وعيما تمتازا من العيش الفينو .. ثمنه خمسة وعشرون قرشا .. وإن كانت لا تزال تمد الخدم بالعيش الشعبي الذى لا يتجاوز ثمنه قرشا وإجدا .. ولما يضير والده أن يرفع ثمنه إلى قرشين .. لا إشفافا ولكن اضطرارا لا يعجزه .. ومهما قال له والده فلن يسمع منه إلا تأييدا للحكومة وسخرية للمعارضين والرافضين .. إنه يستطيع أن يستتج ما سيقوله له دون أن يسمعه منه ..

ولكن لماذا يهتم هو نفسه بهذا الموضوع ويشغل نفسه به .. إن

لمعركة بين الأغنياء والفقراء حول تكلفة الحياة هي معركة طبيعية مستمرة .. وهى ليست معركة حول حق المساواة .. فالمساواة لا يمكن أن تقوم على فرض نظام يساوى بين دخول كل أفراد الشعب حتى يستطيع كل فرد أن يدفع ثمن الرغيف ويدفع تكاليف الحياة

مدخل الفرد يقوم على ما يقدمه من عمل .. ولا يمكن أن تساوى بين من يعمل ومن لا يعمل .. بل لا يمكن أن تساوى بين مجالات العمل نفسه .. كل ما يمكن أن نطالب به هو المساواة فى حرية العمل .. ووضع هذه الحرية فى مجال يعترف به القانون حتى لا تكون حرية السرقة مثلا من بين حرية العمل .. إنه يعلم أن والده بدأ الحياة فقيرا .. فى منتهى الفقر .. وأصبح مليونيرا .. فى منتهى المعنى

كيف ؟ .. بالعمل .. فلماذا لا يطالب الغلظة من طلبة الجامعة بحرية العمل إذا كانت ليست لهم ، حتى يستطيعوا دفع ثمن رغيف العيش لو ارتفع .. إنهم لا يحسون بمسؤولية العمل .. إنهم يريدون الحياة فى رخاء بلا عمل .. ويريدون أن يعيشوا على حساب الأغنياء دون أن يكذبوا ويتعبوا .. وربما لو كان الأغنياء أكثر سخاء ووفروا للفقراء الرخاء فى مطالب الحياة لما فكروا فى ثورة عليهم ولا حتى فى القيام بمظاهرة .. وقد حدث هذا فعلا عندما قررت الحكومة تعيين كل خريجي الجامعة كموظفين فى الحكومة دون أن تعهد إليهم بعمل إنما مجرد أن تدفع لهم مرتبات توفر لهم بعض مطالب الحياة لتسكتهم وتنقى سخطهم الذى ينتهى إلى ثورة .. وهو ما أدى إلى إفلاس الحكومة ، ورغم هذا فهى لا تستطيع أن تتوقف عن دفع مرتبات موظفيها الذين لا يقومون بأى عمل .. ولا تستطيع أن توقف الدعم لمطالب الحياة الشعبية الذى يكلفها غالبا .. كل ما تستطيع هو رفع سعر رغيف العيش .. قرشا واحدا ..

تردد هذا الكلام في عقل مصطفى . . ثم لم يلبث أن هز رأسه كأنه يطرد هذا الكلام منها . . إنه كلام ينطلق من عقلية كأنه ورثها من عقلية أبيه . . إن أباه يحصر الحياة كلها في عمله . . ولا يخطر على باله أيضا أى مسئولية خارج عمله . . ولكن لا . . إن الأغنياء والفقراء لا يفرقان كشيئين أو كدولتين أو كبلدين . . إنها شعب واحد ودولة واحدة وبلد واحد . . ويجب أن يعيشوا هذه الوحدة . . الأغنياء مسئولون عن الفقراء . . والفقراء مسئولون عن الأغنياء . . وهى ليست مسئولية دوافعها شفقة الأغنياء على الفقراء . . أو حاجة الفقراء إلى الأغنياء . . ولكن دوافعها الحرص على مصير واحد مشترك . . مصير الشعب المصرى الواحد . . والشعوب الراقية الهادئة المستقرة تعيش هذه الوحدة . . ويقبل الغنى في استسلام أن يدفع ضرائب تصل إلى تسعين في المائة من دخله . . ويقبل في استسلام أن يحصل الغلبان على دخله ليوفر له مطالب الحياة ما دامت حرية العمل متوافرة له ويستطيع أن يصل إلى أعلى . . وأعلى . . كلاهما . . أى العنى والفقير . . مطمئن إلى أنه في دولة لها حكومة تستطيع أن تراعى حق كل منهما . .

إنه منذ أن بدأ يشترك في اجتماعات ومناقشات طلبة الجامعة يحس بمسئولية جديدة لم تكن تخطر على إحساسه . . وهى مسئولية عن الغلبة . . ولو أن رملائه الذين يشترك معهم في المناقشات ليسوا في منتهى الفقر . . إن أغلبهم في مستوى من الطبقة الوسطى قد يصل إلى أدناه . . ولكن ماهو الفقر . . إنه ليس مجرد عدد القروش التى تحملها في حيبك . . ولكنه يقوم على مدى اطمئنانك إلى الاستمرار في الحياة . . وهم ليسوا مطمئنين إلى مستقبل حياتهم . . كما هو مطمئن

إن أنه على الأقل سيرث ملايين والده . . فهم فقراء . . وقد بدأ يحس أنه لا يساوى شيئا في الحياة إن لم يشترك معهم في حل مسئوليته هذا المعرف

ولم يسم ليبتها . . وأفكاره تتعارض بعضها مع بعض وتقلقه .

وفي الصباح الباكر قام ملهوبا وأسرع بارتداء ملابسه كأنه يتمجمل لمواجهة الواقع . . وأخذ طريقه بسيارته إلى كلية الهندسة . . وعلى غير العادة وجد الفناء في هذه الساعة المبكرة مزدحما بالطلبة . . ووجد نهى وائمة وسط الزحام كأنها جاءت إلى الجامعة تجرى على قدميها حتى لا يזحرها الأتوبيس . . ووجد محيى الدين عبد السلام واقفا يتكلم بصوت عال كأنه يلقي خطابا ، ولكنه يلقيه بصوت هادئ كأنه يعرض خطة . . وكان يقول :

— إن رفع الأسعار لن يقتصر على رغبة العيش . . سترفع أسعار كل مانعش عليه وكل مائ البيت بما فيها أسعار البوتاجاز . . لماذا يرفعون الأسعار . . إنهم يرفعونها حتى يزداد غنى الأغنياء ويزداد فقر الفقراء . . وحتى يزداد الشبان شبعاً ويزداد الجوعاوبون جوعا ونحن مستعدون أن نموت جوعا ونستشهد في سبل مصر ولكننا لن نترك اللصوص يمدون أيديهم إلى أعناقنا ليخنقونا . .

وصاح طالب هاتفا :

— كلهم لصوص . . ولن يحكمنا لصوص . .

وردد عدد قليل هذا الهتاف في صوت ضعيف . . ورفع محيى الدين يده كأنه يسكت محاولة ترديد الهتافات واستطرد قائلا :

— لقد اتفقت مع زملائنا الطلبة على أن نخرج من هنا ونسير

صامتين دون أن نطلق أى هتاف حتى نصل إلى مجلس الوزراء . .
ونطلب أن يقابل الرئيس وفد منا . . حتى نبذل مطالبنا وإصرارنا
عليها . فإذا لم نقابله سرنا بالمظاهرة إلى ميدان عابدين وبقينا متجمعين
في مواجهة القصر لو قضينا الليل . أو حتى ليالى . ونحن
متجمعون أمام القصر صامتين إلى أن تعدل الحكومة عن رفع
الأسعار . .

وارتفع صوت صائحا :

— لماذا نسير صامتين . . لماذا لا نرفع أصواتنا بآرائنا . . ونطالب
بإسقاط الحكومة حتى نفرض عليها الاستجابة لمطالبنا . .

وقال محيى الدين :

— إنها دعوة للشعب كله حتى يتجمع في مواكب تملأ كل
الشوارع وهو صامت . . كأن الشعب كله في جسارة يشيع بها حرية
وحقه في الحياة . .

وارتفع صوت آخر :

— وإذا هاجنا البوليس رغم أننا نسير في صمت .

وقال محيى الدين وصوته العالى يصل إلى المئات :

— إن البوليس يفذ أوامر . . وقد لا تصدر إليه أوامر الاعتداء
عليها ونحن صامتون . . أما إذا هاجنا رغم ذلك فلما حقنا الطبيعي
في الدفاع عن النفس . . ولتكن معركة حتى ولو استشهدنا كلها .
واستمرت المجادلات تتخللها هتافات وإن كان لا يرددها
الجميع .

ومصطفى واقف وسط الزحام بجانب نهي . . يكاد يكون
ملصقا بها . . وهي منذ رائته وهي فرحة به . . وقد شددت على يده
مائلة من خلال ضحكاتها كماداتها :

— كنت أخشى ألا تنضم إلى الغلابة .

وقال مصطفى كأنه يلومها :

— ليس هنا غلابة . . هنا قوة شعبية . . وقد جئت لأنضم إلى

القوة

وصاحت نهي :

— وسنفرض قوتنا على الحكومة . . سننتصر . .

وكانت نهي لا تكف عن الكلام مع كل من حوفا . . وصوتها
عال كأن كل كلماتها هتافات . . بينما مصطفى يتطلع حوله صامتا . .
ثابه يحاول أن يكتشف عالما جديدا غريبا عليه . . إنه يرى كثيرا من
الطلبة المعروفين لم يكن يراهم في لقاءات البوفيه التي تلتف حول محيى
الدين عبد السلام . . بل إنه اكتشف أن ليس كل الطلبة يقفون أمام
محى الدين عبد السلام . . إنهم منقسمون إلى جماعات تلتف كل منها
حول شخصية أخرى . . ماذا يقول كل منهم . . لا يدري . .
ولا يستطيع أن يسمعهم . . إلى أن بدأت المسيرة . .

كانت كتلة واحدة من البشر تتحرك في صمت . . وكان مصطفى
حجاب محى يسيران في الصف الأول بجانب محيى الدين . . وبعد أن
حجوا من فناء كلية الهندسة التقوا بمجموعة كلية الحقوق . . وكلية
الآداب . . ولحققت بهم مجموعة كلية الزراعة . . الآلاف تتحرك في
صمت كأن مصر فعلا في جنازة . . ولكنهم ما كادوا يصلون إلى

مدخل الشارع العمومي حتى وجدوا رجال البوليس يسدون الشارع
وفي يد كل منهم هراوة وفي يده الأخرى درع مخصصة لحماية نفسه ..

وارتفع هتاف :

« البوليس مع الشعب .. والشعب مع البوليس ..

وردد هذا الهتاف بقوة ..

ثم رفع يحيى الدين ذراعيه يطلب من الجميع التوقف .. ثم
تقدم وحده متوجها إلى ضابط البوليس الذي يبدو كأنه القائد ..
وما لبث أن لحق بمحيى الدين ثلاثة من الطلبة الآخرين لملهم قادة
التنظيمات الأخرى .. وقال يحيى الدين لضابط البوليس بعد أن وصل
إليه :

« إننا نقوم بمسيرة سلمية .. وقد قررنا أن نمتنع حتى عن
العتاف .. إلى أن نلتقى برئيس الوزراء ونبلغه مطالبنا ..

وقال الضابط في برود :

« ممنوع .. عودوا إلى داخل الجامعة وقولوا رأيكم ومطالبكم
دون أن تخرجوا منها ..

وصاح واحد من قادة الطلبة الملتفين حول الضابط :

« لن نعود .. وسنستمر بالمسيرة حتى مجلس الوزراء ..

وصاح الضابط في سخط وهو يشير بأصبعه إلى رجاله :

« قلت لكم ممنوع ..

ومد يده بهم أن يمسكوا بمحيى الدين كما هم بعض رجاله أن

بمسكوا بالباقيين .. ولكن الطلبة استطاعوا أن يفروا من أمامهم ويحروا
إلى تكتل مجموعة المظاهرين ..

وبدأت المعركة ..

وكالعادة .. البوليس يطارد الطلبة بالمعص الغليظة .. ويطلق
الرصاص في الهواء مهددا بأن يطلق عليهم .. كما يطلق قنابل تلدرف
دموع العيون التي تمسها .. والطلبة يدافعون عن أنفسهم بقذف
الحجارة .. وقد يتمكن بعضهم من الانفراد بأحد عساكر البوليس
فيلقونه أرضا وينهالون عليه ضربا .. ومصطفى حائر .. لا يدري
كيف يهاجم ولا كيف يدافع عن نفسه .. ولكنه يجري وراء نبي ..
يهرب معها .. ويقف معها وهي تلتقط الطوب وتلقى به .. إن
حولهم أكواما كثيرة من الطوب لم يلحقها من قبل .. هل جمعت
خصيصا لملاقاة هجمات البوليس .. ولكنه لا يلتقط طوبة ويقذف
بها .. إنه فقط بجانب نبي .. وهي تنضم حيناً بعد حين إلى
المجموعات البعيدة عن البوليس وتردد معهم الهتافات .. وهو أيضا
يردد معها هذه الهتافات .. ولكنها هتافات عجيبة بالنسبة له ..
« مش كفاية لبسنا الخيش جاين ياخذوا رغيف العيش » ..
« يا حرامية الانفتاح » .. الشعب جعان مش مرتاح » .. « يشربوا
ويسكى ويأكلوا فراخ والشعب من الجوع أهو داخ » .. « هو بيلبس
آخر موده واحنا بنسكن عشرة في أوده » .. بل إن الهتافات تطورت
إلى أبعد من ذلك .. لم تعد مقصورة على رفض رفع الأسعار .. لقد
كانوا يبتغون .. « الصهيوني فوق ترابي والمباحث على بابي » ..
« يا أمريكا لمى فلوسك بكره الشعب يدوسك » .. « احنا الشعب مع
العمال ضد حكومة الاستغلال » .. و .. و .. وهو لم يكن يتصور

أو وحى الموقف يمكن أن يطلق هذه الهتافات المنغمة كأنها أبيات من الشعر . كما أنها هتافات لا تعبر عن مجرد الموضوعات التي كانوا يناقشونها في بوفيه الكلية . إنها تعرض موضوعات سياسية واسعة . ولكن شلة البوفيه ليست وحدها التي تقوم بالمظاهرة أو تقودها . ووسط كل ما يجري حوله وعيابه مركزتان على سبي كأنه يخاف عليها . .

وعلا . . لم نلاحظ سبي وهي تجري في ميدان المعركة أو أحد عساكر البوليس قد أصبح بحانبها رافعا عصاه ليهاجم بها فوق رأسها . . وجري مصطفى إليها وشدها بعيدا عن العسكرة سقطت العصا على رأسه هو . . كانت ضربة عنيفة شقت رأسه ونزف منها الدم . . وسقط واقعا على الأرض . وعاجله العسكرة بضربة أخرى بعصاه فوق ظهره . ثم تحطاه بجري باحثا عن ضحية أخرى .

وصرخت نبي . . مصطفى . . ثم سقطت على ركبتيها بجانب جسده الممدد على الأرض . . إنه لا يزال حيا . . وقد رفع يده يصفط على رأسه المشقوق كأنه يحاول أن يحتفظ بدمه المنهار قبل أن يفرغه كله . وجاء اثنان من الطلبة يحاولان رفعه عن الأرض . وأحدهما يقول للآخر :

— نأخذه داخل الكلية . .

وظهر شاب ثالث . . فتحى إبراهيم . . وهو أحد أفراد شلة البوفيه . . وقال كأنه يهتف :

— لا . . لا تدخلوا به إلى الكلية . . إن البوليس يحتلها وقد يقضون عليه . . تعالوا معي . .

وشدت نبي « الإيشارب » الذي يلقي عنقها وحاولت أن تسد به الحرج الذي شق جيبه ثم لفت به رأسه . وتعاونت مع الباقيين في الوقوف به . .

ولم تكن الضربة قد أفقدت مصطفى وعيه ولكن الدماء لا تزال تنزف من رأسه وتجري فوق وجهه دون أن يستطيع إيشارب سبي أن يصددها . . كما كان يحس بالأم الضربة التي سقطت على ظهره . . يحس كأن عظامه قد تفتتت . . وقد استطاع أن يقاوم ويقف مستندا على أكتاف زملائه . . وساروا به وهم يحاولون الجري به . . وسبي تجري معهم . . وصاح فتحى إبراهيم في مصطفى وهو يسده بدراعه :

— أين سيارتك . .

ورفع مصطفى ذراعه مشيرا إلى مكان السيارة وكان قد تركها بعيدا عن مدخل الكلية احتياطا للطوارئ . وعاد فتحى يصيح :

— سأقودها أنا . . أين المفتاح . .

وحاول مصطفى أن يضع يده في جيبه وهو يسير مترنحا وسيقانه ترتعش مع نظرائه . . ولكنه لم يستطع أن يدخل يده في جيبه حتى يخرج المفتاح فأسرعت نبي ودست يدها بدلا من يده وأخرجت ما فيه من مفاتيح ناولتها لفتحى . .

ودفعوا مصطفى إلى المقعد الخلفى وقفزت نبي جالسة بحانبه ومدت ذراعا فوق كتفه وأمالت رأسه فوق صدرها وهي تصغط بيدها الأخرى على الحرج وتحاول أن تحبس الدم المنهار . وقفز فتحى أمام عجلة القيادة وهو يقول لزميلته :

— سأخذه إلى بيتنا .. إن في العجالة عيادة طبيب وجابها
أجزاءه ..

وانطلق بالسيارة في سرعة مجنونة .. بينما جرى زملاء عائدين إلى
تجمع المسيرة والاشترك في المعركة .

وفي دقائق استطاع فتحى أن يصل إلى العجالة التي تقع عند
منحنى من منحنيات ميدان الحيرة .. وكأنه كان يقف بالسيارة فوق
كل ما ومن يعترضها .. وتعاون مع نهي في جذب مصطفى إلى خارج
السيارة وصعدا به السلم وهو يزفر أنفاسه كأنه يتأوه .. ودخلا به إلى
عيادة الطبيب في نفس العجالة .. إن الطبيب أستاذ في الجامعة ولكنه
لم يستطع أن يذهب يومها إلى طلبه اتقاء من المظاهرات ..

ولوى الطبيب شفتيه قرفا وسخطا وهو يستقبلهم .. لقد جاءوا
إليه بواحد من المجانين .. ولكنه بدأ يقوم بمهمته .. وقال بعد أن
كشف عن الرأس المشقوق :

— بسيطة .. لا أكثر من غرزتين ..

وبدا يفرز الخيط في جبين مصطفى وهو لا يصرخ ألما رغم أن
الطبيب لم يحدده بالبنج ليرحمه من الألم .. ربما لم يكن مصطفى ساعته
قادرا على الصراخ مهما بلغ به الألم .. ونهى وفتحى من حوله وعيوسها
منكرة كأنها على وشك أن يبكي إشفافا عليه ..

وانتهى الطبيب ولف رأس مصطفى بالشاش .. وقال فتحى في
لهجة مهذبة :

— الانتعاب يا دكتور ..

وقال الطبيب ابتسامة كأنها متعصبة :

— لاشيء .. كأي مشترك معكم في المظاهرات .. وأنا مثلكم
لا أؤيد ، ولست سعيدا برفع سعر رغيف العيش .. وإنى في انتظار
ابنى ولا أدري كيف سيعود إلى .. إنى سأطاله هو بالانتعاب إن لم
يعد سليما .

واتسم فتحى وهى امتنانا للطبيب .. وكانت ابتسامة مصطفى
أكبر .. كأنه فرح .. لا لأن الدكتور لم يأخذ أنعاما ولكن لأن الدكتور
ليس من الغلبة ، ورغم ذلك لا يقبل رفع سعر الرغيف

وسأده فتحى حتى دخل به إلى بيته وأجلسه على مقعد مريح .
إن مصطفى رغم طفيل الألم الذى يصح في رأسه إلا أنه استرد كامل
وعيه وأفانق من انهياره وصعفه .. وقالت نهي وهى تشير إلى رأسه
المفوف بالشاش وتبسم ابتسامتها الواسعة كعادتها :

— لقد بدأت تعتدى على حقوقى .. فهذه الضربة كانت من
حقى أنا ..

وقال من خلال ابتسامة ضعيفة :

— لا تكونى أنانية وتصرقى بين حقوق الناس .. والبوليس
لا يعتدى علينا ليعطينا حقا ولكنه يسلب حقوقنا .. وكلها حق
واحد .

وبحلفت نهي في وجهه كأنها دهشة لما يقوله .. إنها أول مرة
تسمع منه مثل هذا الكلام .. لعمل الضربة قد عبرت فكره وأراءه .
أو لعله كان تائها إلى أن أفاته الضربة على المكان الذى يختار أن يقف
فيه .

واعترى فتحى ليغيب عنها دقائق .. ونزل إلى الشارع ووقف

أمام سيارة مصطفى التي كان يقودها ودار حولها كأنه يحاول أن يتعرف عليها . . إنه منذ كان صيا وهو يحلم ويتمنى أن يملك سيارة . . وقد علم نفسه قيادة السيارات وتفوق فيها ولكنه إلى اليوم لا يملك سيارة . . لا هو ولا عائلته . . ولا يستطيع أن يتصور طريقا يصل به إلى شراء سيارة . . بل إن أحلامه بدأت تنحصر في أن يبدأ بأن يكون سائق تاكسي رغم أنه طالب في كلية الهندسة . . ولكنه اختار أن يدرس الهندسة الميكانيكية حتى يستوعب كل ميكانيكية السيارات . . وربما بعد أن يكون سائق تاكسي يستطيع أن يشتري سيارة لنفسه . . إن سائقي التاكسي يحققون أرباحا وفيرة . .

وركب فتحي السيارة بعد أن أقنع نفسه أنه سيعدل موقفها بمحاذاة الرصيف . . ولكنه ما كاد يمسك بمعجلة القيادة حتى انطلق بها يلف ما حول الشارع من حواري . . إنه لا يستطيع أن يقاوم شهوة القيادة . . ولكنه ما لبث أن عاد وركب السيارة أمام العمارة ثم نزل منها وأغلق أبوابها بالمفتاح وهو يتحسس جدرانها بيديه كأنه يرت عليها مودعا . . ثم صعد إلى شقته ودخل على مصطفى ونهى ومد يده بسرعة إلى مصطفى يناوله مفتاح السيارة كأنه يهرب عما تثيره فيه شهوة القيادة . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الثانية بعد الظهر عندما وفد عليهم محي الدين عبد السلام واثنا من رملاته . . لقد علموا بإصابة مصطفى وحمله إلى بيت فتحي فجاءوا للاطمئنان عليه . . ولكن محي الدين لم يسأل عما يطمئنه ولكنه نظر إلى رأس مصطفى المضمّد بالشاش نظرة عابرة ثم قال :

— قضت المسيرة قبل أن تصل إلى الكويبرى . . لقد كان

السوليس بضرب فيسا بقسوة . . كانت معركة كأنها معركة أكتوبر حديدية . . معركة الشعب المصري وإن لم تكن ضد إسرائيل . . لقد سقط من بيننا كثيرون واعتقلوا العشرات . . وصاحت نهي كأنها تعود إلى الهاتف :

— إما أن يفرجوا عن المعتقلين أو يعتقلونا كلنا . . لن نستسلم ولن تنتهى الثورة . . ثم خفت صوتها واستطردت قائلة وهـ تستدير نحو الباب :

— عن إذنكم . . إننى مضطرة أن أعود إلى بيتى الآن . .

وتبعها مصطفى بعينه وهي خارجة وهو يودعها بانتماسة ساخرة . . إنها لا تستطيع أن تحل بواجباتها الزوجية حتى في سبيل الوطن . .

وحلس محي الدين بجانبه وقال في صوت هادئ كأنه ينوى أن يجادته طويلا :

— إننا لن نسكت . .

وقال مصطفى في حدة يعترضها زنين آلامه التي تنطلق من رأسه :

— لا . . لن نسكت . . إنهم أغبياء لا يعلمون أن تقييد الحرية يدفع إلى مزيد من الحرية . .

ونظر إليه محي الدين كأنه فخور مزهوا بآكتساياه ثم قال :

— ولكننا يجب أن نساومهم فإذا أفرجوا عن المعتقلين نعدهم

بالتماهم معهم في سلام وقد خطرت على بالي فكرة فإن والدك يستطيع أن يكون الوسيط بيننا وبينهم ..

واهتز مصطفى كأنه فوجيء يذكر والده وكأنه كان قد نسيه .
وقال :

— أن أبى ليس مسئولاً عن الحكومة .. ولا يتدخل في أي تصرف حكومي .. إنه متصرف لمسئوليته بعيداً عن أي مسؤولية عامة .. أبى لا يعتبر من رجال السياسة ..

وقال محبى الدين كأنه يلومه :

— ولكن من المعروف أن والدك صديق حميم لرئيس الحكومة ولكل المسؤولين . وقد يستطيع إقناعهم ومسئولته اليوم ليست مسئولية عامة ولكنها مسئولية خاصة جداً .. لأنها مسئولية عن ابنه .. لقد أصبحت منا ومعنا

وقال مصطفى كأنه يقاوم :

— أبى لا يتحدث مع أبى في أي موضوع سياسي . ولا يجمع بيننا أي رأى .. كلانا متباعد عن الآخر ويفكر لنفسه ..

وقال محبى الدين محاولاً أن يقنع مصطفى ولو اضطر إلى أن يوافقه :

— إن والدك حتى لو لم يكن محترفاً سياسياً .. ولم يتول أي منصب رسمي .. إلا أنه يعتبر شخصية شعبية .. كل الشعب يعرفه . ولن يرفض أن يكون وسيطاً بين الشعب والحكومة . إن ما يطالب به يطالب به الشعب كله . ولو استطاع أن يقنع الرئيس بالإفراج عن المعتقلين . ولو استطاع أن يجد معه موعداً يستمع إلى

مثل الطلبة .. فلن نلجأ إلى المظاهرات والمسيرات ولن يضطروا إلى تسليط البوليس للاعتداء علينا . إنى كما ترى من أنصار السلام . ولن يتحقق السلام العالمى إلا إذا تحقق السلام الداخلى بين الحكومة والشعب .

واشترك في المناقشة كل الحاضرين .. وكلها مناقشات حول دفع والد مصطفى إلى مطالبة رئيس الوزراء بالإفراج عن المعتقلين .. وكانت آخر كلمة قالها مصطفى :

— سأحاول .

وقام ليعود إلى بيته ، وصاح فتحى :

— سأقود لك سيارتك ..

وقال مصطفى وهو منصرف :

— شكراً .. سأقودها بنفسى حتى أعود على القيادة وأنا مجروح ..

وتهد فتحى كأنه ساخط على فقدان أمله في تحقيق شهوة القيادة .

ومصطفى يقود سيارته في ببطء كأن آلامه التى تضج في رأسه هى التى تقود .. وكانت السيارة نفسها تتحرك كأنها تتأوه ..

الفصل الثالث

كان المليونير رضوان الدسوقي جالساً في زهق يقلب الصحف بين يديه وينظر في الصفحات دون أن يقرأ منها سطراً . . إنه في انتظار عودة ابنه مصطفى من الجامعة ليتناول معه طعام الغداء . . والالتفاف حول مائدة الغداء هو الاجتماع الأساسي الذي يجمعه بابنه كل يوم . . فهو في الصباح يفتح عينيه وعقله كله مشغول بأعماله ويتعجل الذهاب إلى مكتبه حتى لا يستطيع أن يشارك ابنه طعام الإفطار . وفي المساء يعود إلى مكتبه في الساعة الخامسة مع الشتاء والسادسة مع الصيف دون أن يجد متى سيعود إلى البيت . . وعادة لا يلتقى مع ابنه في المساء . . إن مائدة تناول الغداء هي وحدها التي تجتمع بابنه . . وهو يعتمد الحرص على هذا اللقاء . . بل إن المواعيد المحددة لتناول طعام الغداء تطورت مع تطور موعد انتهاء ابنه من المدرسة ثم من الجامعة . . وهو يعيش كل حياته على مواعيد محددة . . وكان موعد تناول الغداء منذ التحق ابنه بالجامعة في الساعة الثانية بعد الظهر . . ثم جعله مع تطور دراسة ابنه يبدأ في الساعة الثانية والنصف . . ثم ارتفع به إلى الساعة الثالثة . . ولكن الساعة الآن بلغت الرابعة ولم يعد ابنه إلى البيت . . ورغم ذلك فهو لا يزال مصراً على انتظاره . .

وليس معنى هذا أن السيد رضوان يعتبر أبا عاطفياً . . يغلبه حبه لأولاده مهما تحمل أى معاناة . . أبداً . . إنه أب معروف بأنه صارم

في جديته . . وهذه الجدية تغلب كل عواطفه حتى بالنسبة لزوجته .
ومن جديته أنه يعيش كل حياته وكل يوم من أيامه في نظام مرسوم
وموعد محدد لكل خطوة تفرضها مسئولياته . . وهو النظام الذي يفرض
تناول الغذاء يوميا مع ابنه . . لا ليغنى متعته باللقاء به أو لحفته إلى
رويته أو الإفاضة عليه بكرم الأب وتدليله . . ولكن فقط لأنه يحمل
مسئولية الاطمئنان على هذا الابن وتتبع أخباره يوما بيوم ومناقشة كل
ما يطرأ على عقله من آراء أو نوايا . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة والنصف عندما عاد ابنه
مصطفى إلى البيت . . وقد فوجيء به الأب ورأسه ملفوف بضاد من
الشاش الثقيل . . ووجهه ممتقع باللون الأصفر . . وإن كانت عيناه
تلمعان بحدة كأنه لا يزال في معركة عنيفة .

وكادت تنطلق من الأب صرخة جزع . . ولكنه بذل مجهودا عنيفا
ليكتم صرخته . . وهو يدور بعينه في تفاصيل كيان ابنه . . إنه
سليم . . وهو واقف على قدميه أمامه ليس فيه ما جد عليه إلا هذا
الضاد الذي يلف رأسه وهذه الصعرة التي تكسو وجهه . . واستراح
الأب في جلسته وقال وهو يفتمل منتهى الهدوء :

— ماذا حدث ؟

وانحنى الابن وقبل يد أبيه كما تقضى التقاليد المفروضة عليه . .
وإن كانت قبله سريعة فاترة . . وقال في ثبات :

— لقد قمنا بمظاهرة . . واعتدى علينا البوليس رغم أنها كانت
مظاهرة سلمية .

وابتلع الأب ريقه بعد أن عرف السبب في أن رأس ابنه مضمدة
وقال :

— هل انقذت إلى هذه المظاهرة أم كنت موافقا على الدعوة إليها
والاشتراك فيها .

وقال الشاب متطلعا في حماس :

— طبعاً وافقت . . بل كنت من قادتها . . واعتدى البوليس
على . .

وقال الأب مقاطعاً وهو يزفر أنفاس السخط :

— من حق البوليس أن يعتدى عليك

— وصاح الشاب في وجه والده :

— كيف يكون من حق أن يعتدى علينا في حين أننا لم نعتد على
أحد ولا على شيء . . لقد قررنا أن نكون مظاهرة سلمية . . حتى
أننا لم نكن نطلق أي هتاف . . مجرد مرور في الشوارع . . وطبعاً
الحكومة ستعرف دوافع هذا المرور . . و .

وعاد الأب يقاطعه قائلاً

— هل أبلغتم البوليس قبل القيام بهذه المظاهرة . . وحصلتم
على موافقتهم ؟

وصاح مصطفى :

— طبعاً لا . . فالبوليس لا يمكن أن يوافق على أي مظاهرة
سواء سلمية أو غير سلمية . . إلا إذا كانت مظاهرة مؤيدة للحكومة
وتحتف له

وقال الأب في لهجة جادة كأنه يلقي درسا على ابنه .

— إن مسئولية البوليس تفرص عليه فض أى تظاهر لم يبلغ به مقدما ويوافق عليه . . بالمظاهرات تتيج الفرصة ليندس فيها دخلاء لهم أغراض وأهداف أخرى تهدد بالمعرضى وتدد الأمل . إن كل المظاهرات تنتهى على الأقل بالاعتداء على المحال التجارية وبهيا . . والبوليس هو المسئول عن الأمن . . و . .

وقال مصطفى وهو الذى قاطع هذه المرة صائحا :

— ولماذا لم يكتف البوليس بحماية مطاهرتنا من الدخلاء دون أن يعتدى علينا

وقال الأب في هدوء :

— مادام البوليس لم يكن على علم بهذه المطاهرة مقدما فمن حقه أن يعتبركم كلكم من الدخلاء أى مجردكم من حقيقة أهدافكم وينسب إليكم ما شاء من اتهامات . . وأحب أن أقول لك أن استعداد البوليس لحماية مطاهرة يتطلب وقتا طويلا يسبقها أيام ولا تصور أن رئيس الدولة نصب يستصح أن يباحى البوليس بأى تحرك له بين الشوارع بل يجب أن يبلغ البوليس هذا التحرك مقدما حتى يستعد لحمايته وحماية المتظاهرين له . . أى حتى رئيس الدولة مضطر لاستئذان البوليس وكل الذين يقومون بأى مطاهرة يعلمون أنهم سيواجهون البوليس . . ويتعرضون لفضهم ولو بالقوة .

ولذلك فمعظم قادة المظاهرات يحسبون حساب البوليس ويخطط كل منهم للهروب منه قبل أن يصيبه أى اعتداء . . ونادرا ما يقع الاعتداء على واحد منهم . . بل يتركون الاعتداء ينصب على باقى المتظاهرين

الذين دفعوا بهم إلى التظاهر . لذلك فانى لا أصدق ما قلته لى من أنك كنت أحد قادة هذه المظاهرة . . فقد اعتدى عليك كفرد عادى خدع وانقاد عفرا إلى تحريض القادة . .

وقال مصطفى وهو يخلق فى وجه أبيه كأنه يلومه :

— هذا غير صحيح . . كلنا أصابنا اعتداء البوليس . . وما أصابى أقل مما أصاب عبرى . والقائد هو الأقوى إياها والأحرأ على التحرك للتعبير عن رأيه الذى يعبر عن رأى المجموع . . وأن مارلت محتظا بإيماى . . وانتهى بى اعتداء البوليس إلى أن أصبحت أكثر حراة على التحرك معبرا عن رأى . . يجب أن تعرض هذا الرأى فهو رأى الشعب

وقال الأب فى رنة ساحرة :

— ربما لأنت ورملاء القادة مارلتم حديثى فى إقامة التظلمات السياسية . فلم تعرفوا ولم تتعودوا على مواقف القادة إن تنظيم المظاهرات كتطية كل الممارك حتى العسكرية فالقائد العسكري لا يشترك بشخصه فى المعركة ولكنه يكتفى بالتحطيط ها ويبقى خلالها مستترا فى مكتبه وبين حرسه الخاص . . وهكذا قادة الاحراب أو التجمعات السياسية التى تخطط للمظاهرات . . يحرضون عليها ويخططون لها وهم مختشون بعيدا عن أن تنالهم يد البوليس .

وحلس مصطفى بجانب والده السيد رضوان وقال كأنه يرجوه :

— لا تلمنى يا بابا . . ولا تحاسبنى . . ولا تضيع وقتنا فى مثل هذا الكلام . . فانا فى حاجة إليك لتقف بجانبنا بعد أن بدأنا بهذه المطاهرة .

وقال الأب في حدة :

— هل أخذت رأى في هذه المظاهرة قبل أن تقوموا بها ؟

وقال الابن وهو محتفظ بهدوئه ويتسم كأنه يحاول أن يغرى أباه
بإيتمامه :

— لقد كنت أتحمل مسئولية وطنية .. وهي مسئولية مفترضة في
الأبناء والآباء وليست في حاجة إلى الاستئذان ..

وقال الأب ساخطاً :

— إن مسئوليتك الوطنية يجب أن تجارى بها مسئوليتك عن
نفسك .. وأنت لست إلى اليوم مسئولاً وحدك عن نفسك فأنا مسئول
معك عنك .. ويوم نعرض بمسئوليتك عن نفسك يكون من حقلك أن
تصرف في كل حياتك دون أن تتفق معي أو تستأذن .. ولكنك
تعيش بمسئوليتي عنك وهي مسئولية تفرض عليك أن تحسب حسابي
في أي تصرف من تصرفاتك بما فيها اشتراكك في مثل هذه المظاهرة
الطلائية ..

وصاح مصطفى وإن كانت صبيحة لا تحل باحترامه لأبيه .

— لقد كنت أنت الدافع الأول والأقوى لاشتراكى في هذه
المظاهرة ..

وقال الأب في دهشة :

— أنا لا يمكن .. لم أكن أعلم شيئاً عن هذه المظاهرة

وقال الابن وهو يحفى عينيه عن أبيه كأنه يخشى أن يواجهه بها

— إنى معروف بين كل الطلبة بأن أبى صديق لرئيس الدولة
ولرئيس الوزراء ولكل الوزراء .. إنك معروف بأنك صديق للحكومة
رغم أنك لست أحد المسؤولين عن الحكم .. وقد أردت أن أثبت لكل
الطلبة أن صداقة أبى للحكومة ليس معناها رفض المطالب الشعبية
الوطنية .. ولا رفض الاشتراك في التعبير عن هذه المطالب بأى وسيلة
من وسائل التعبير بما فيها القيام بمظاهرات شعبية .. أردت أن أنفى
عكس باعتبارى ابنك ومثلاً لك أن صداقتك للحكومة تعنى
الاستسلام لها وتأييد انحرافاتنا .. وقد اعتمد على الطلبة في هذه
المظاهرة كأنهم يعتمدون عليك أنت .. ووضعوني في مقدمة القيادة
كأنهم اختاروك أنت زعيمنا .. فانا أنت .

وقال الأب ساخراً في مرارة :

— كل ذلك وأنا لا أعلم ولا أدرى ولا أنتظر شيئاً .. كأنك
أصبحت أنت المسئول عنى .. أنت الأب وأنا الابن .. أنت الأب
الذى يحرص على رسم صورة ابنه أمام الناس .. أى صورتي أمام
زملائك الطلبة أصحاب السيادة ..

وقال الابن كأنه يستجدى أباه أن يصدق له :

— أبداً يا بابا .. إن زملائي يتصورون أنى لم أنضم إليهم
إلا تعبيراً عن موقفك أنت .. وبعد أن استشرتكم واتبعت نصائحكم
ونلت موافقتكم ..

وصاح الأب مقاطعاً في سخط :

— هذه مصيبة .. فكأنهم اعتبروني معارضاً للحكومة .. ناقماً
عليها .. أو لعلهم أخبرت من ذلك فرغم أنهم يتصورون أنى

لا يمكن أن أكون معارضا للحكومة إلا أنهم خدعوك بضمك إليهم حتى يستغلوا اسمك واسمى في إقناع الناس بأنه حتى مؤيدى الحكومة قد انقلبوا عليها واشتركوا معهم في الثورة عليها .
وقال مصطفى وكأنه لا يزال يستجدى :

— أبدا يا بابا . . إنهم يعترفون بصداقتك للحكومة .
الصداقة المبرهنة التى لا تسلم للأخطاء ولا تعتبر مسئولة عن اعتداءات الحاكم على الشعب المحكوم . . بل إنهم يحاولون استغلال هذه الصداقة للوصول بالحكومة إلى الطريق الصحيح . . وقد طلبوا منى أن اطلب منك أن تتحد لهم موعدا ليحتمعوا بك ويعرضوا عليك مطالبهم وآراءهم حتى تتوسط لهم لدى الحكومة . . على الأقل لإقناع الحكومة بالإفراج عن المعتقلين وعدم تسليط البوليس للاعتداء عليهم بعد أن اعتدى على ابنك . . أبى على أنا . .
وقال الأب وهو أشد سخفا :

— إنى لست مسئولا عن لقاء الطلبة ومناقشتهم ولا حتى مجرد الاستماع إليهم . ثم ماذا أقول للوزير الداخلية لو قررت أن أذهب وأرحوه ألا يترك البوليس يعتدى على ابنى . . إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن أعتذر له نية عنك . أعتذر عن اشتراكك في هذه المظاهرة . وأقول له أنك اعتدت إلى هذه المظاهرة عفوا دون قصد . ثم أتعهد له بأنك لن تعود أبدا للاشتراك في مثل هذه المظاهرات . فهل تقبل أن أعتذر للوزير باسمك . . وهل نوافقى على التعهد بأنك لن تعود إلى الاشتراك في المظاهرات .
وقاطعه الابن في حدة :

— لا . . أبى لا أقبل الاعتذار للوزير . . وقد أتردد طويلا فى أن أقبل اعتذاره هو لى . . فانا لم أبدا بالاعتداء على البوليس ولكن البوليس هو الذى بدأ بالاعتداء على . . ثم إنى لا يمكن أن أتعهد بعدم الاشتراك فى أى مظاهرة أخرى يقررها الطلبة . . فنحن لا نلعب ونحن نتظاهر حتى نفلح عن هذه اللعبة . . ولكننا نقوم بما نمرسه علينا المسئولية الوطنية . . وهى مسئولية تعرض تحمل الاعتداء علينا حتى لو وصل الاعتداء إلى حد الاستشهاد فى سبيل الوطن .
وقال الأب وهو يلوى شفتيه قرفا :

— إذن فلا يمكن أن يحدث الوزير فيما حدث لك . . وإذا بدأ هو بإسلاعى أنك اشتركت فى المظاهرة . . فسأرد عليه بأبى لم أكن أعيرف وأبى فوجئت . وربما قلت له أبى أعانى من أن أبى محزون . وكل ما أريده منك هو ألا تتجاهل مسئوليتى عنك . . وتركتى أعانى من هذه المسئولية أو أنحل عنها . .

وقام الابن منطورا وابتعد عن أبيه محتفيا فى غرفة أخرى . .
وبعد دقائق دخلت زوجته عفاف فى خطوات عصبية وصاحت فى كلمات مرتعشة

— لماذا لا تريد أن تتصل بالوزير لتبلغه بما حدث لأبى .
وقال السيد رضوان فى تصميم :
— لن أتصل بأحد . . وما حدث قد حدث . .
وقالت الأم بصوتها المرتعش :

- سأتصل أنا بصفية هانم حرم الوزير .. كيف يتركون البوليس يضرب ابني ..

وقال في برود :

- افعل ما شئت .. ولن اعتبر نفسي مشغولا ..
بهالمناصفة .. إن ابتنا حرمتنا من أن نتناول الغداء حتى الآن ..

وقالت زوجته وهي تدير له ظهرها :

- تفضل . الغداء جاهز لو كنت تستطيع أن تأكل وابنتك مضروب وراسه مشقوق ..

ووجد الأب نفسه جالسا على مائدة الغداء وحده .. فابه راقدا في غرفته مع رأسه المضروب وجانبه أمه .. إن النظام الذي يعيش عليه قد احتل . ثم إن الساعة قد وصلت إلى الخامسة . ويبدو أن مجرد الإخلال بالنظام يؤثر على أعصاب بطنه . لقد تعودت هذه البطن أن تأكل في الساعة الثالثة فإذا تجاوزتها دون أن تأكل انقصت وانكسبت ولم تعد تقبل أى طعام .. ورغم ذلك فهو حالس يمد يده إلى الطعام ويلقئ به في فمه دون أن يتذوقه . وهو ساهم كان في عقله زوبعة يستسلم لها .

لماذا لا يتنظر أن يشترك انه مصطفى في الحياة السياسية التي يعيشها الطلبة .. ولماذا فرجى . كل هذه المفاجأة ؟

إنه هو شخصيا قضى كل أيام دراسته وهو يعيش الحياة السياسية التي يعيشها الطلبة . ولكنه كان يعتمد عدم الاشتراك في المظاهرات

التي تطوف الشوارع وتنتهى بانطلاق المارك مع البوليس .. ورغم ذلك فقد استطاع أن يقيم لنفسه شخصية بين الطلبة كأنه واحد من الزعماء .. فقد كان من أبرز الطلبة في دراسته وفهم كل الشؤون السياسية .. ومن أحرصهم على تقدير كل الأوضاع والأحداث التي تتعلق بها يمكن أن يثير إحساس الطلبة بمستوليتهم الوطنية .. كما كان معروفا بأنه يحدث ليق ..

بل كان كثيرا ما يقف خطيبا بين الطلبة ويستطيع أن يدفعهم إلى الاقتناع بما يكون قد قرره .. وكان معروفا عنه أنه خطيب هادئ .. لا يصيح بكلماته .. ولا يختار الكلمات المثيرة الصارخة .. ولا يطلق منادات يردد بها الطلبة وراءه .. بل كان يتحدث أو يلقي خطابه كأنه أستاذ يلقي درسا يعتمد على كشف الوقائع والأهداف .. ولم يطالب أبداً بأن يخرج الطلبة إلى الشوارع في مظاهرة أو يطالب بإعلان الثورة .. ولكنه كان واثقا من نفسه إلى حد أنه كان يعلم مقدما ما سيتهى إليه كلامه .. قد ينتهى بأن يفتح الطلبة بالخروج في مظاهرة .. أو قد ينتهى بتكوين جماعة تقوم بعملية وطنية سرية .. أو قد ينتهى كلامه بأن يقرر الطلبة تأجيل التحرك في انتظار ما يمكن أن يحدث . أى أنه كان أحد الموجهين لكل تحركات الطلبة .. أن يظهر بنفسه في الصفوف الأولى .. ودون أن يشترك في تنفيذ عملية .. إن كل مسئولية كانت مقصورة على أن يفكر .. وينقل أفكاره إلى جموع الطلبة ..

وكل ما كان يحرص عليه هو علاقاته الشخصية بأفراد الطلبة . وخصوصا الأفراد الأكثر تطرفا أو الذين وصلوا إلى مراكز قيادية .. وقد نجح في أن يكسب ثقة الجميع وصداقتهم .. ربما لأنهم كانوا

لا يعتبرونه منافسا لهم في اتخاذ مظاهر الزعامة بين الطلبة . مجرد أستاذ يقف خلف الصفوف ويستطيعون أن يستغلوا أفكاره وكلماته في التزود بدوافع مقنعة للقيام بمظاهرة أو وضع هتاف جديد يشير المظاهرين . . . ولكن . . .

لماذا لم يكن يشترك بشخصه في المظاهرات أو في أى عملية وطنية يقوم بها الطلبة ؟

هل كان جباناً يخاف على نفسه من مواجهة البوليس . . مما قد ينتهي بتعرضه للضرب كما ضربوا ابنه أو قد ينتهي إلى اعتقاله . .

أبدا . . إنه لا يعتبر نفسه كأنه كان في شبابه جباناً . . وقد كانت أجهزة البوليس قد حددت قوة تأثيره على الطلبة . . وربما كانت قد سجلت بعض أحداثه في اجتماعاته بين الطلبة وتأكدت من مسؤوليته في إثارتهم . . حتى أنه في إحدى الأمسيات اصطاده أحد صباط البوليس . . وقال له فوراً :

— لعلك تعلم بما يمدّه زملاؤك الطلبة للقيام به صباح الغد .

ورغم أنه كان قد عرف أن الطلبة سيقومون بمظاهرة متفق عليها بين قيادات كل كليات الجامعة وكان واحداً من الذين أوجروا بقيام هذه المظاهرة . . إلا أنه أجاب الضابط في هدوء وبصوت خفيض :

— لا أعلم شيئاً . .

وقال الضابط وهو يتسهم ابتسامة تقطر بالسخن :

— سواء كنت تعلم أو لا تعلم فإننا نعرف أن لك تأثيراً كبيراً على

زملائك من الطلبة . . وتستطيع أن تتصل بهم الآن وتقتنعهم بالعدول عن المظاهرات التي ينوون القيام بها غدا . .

وقال رضوان وهو محتفظ بهدوئه :

— أنا لم أشارك في أى مظاهرة . . ولا أعرف أحداً من الذين يتظاهرون .

وقال الضابط في حدة كأنه يصق في وجهه :

— إنى لا أرجوك ولكنى أحذرك . . فنحن نعتبرك أحد المسؤولين عن كل ما يجري في الجامعة . .

واستندعه ضابط البوليس وظل هو محتفظاً بهدوئه كأنه لم يباحاً باتهام خطير . وكل ما فعله في اليوم التالي أنه لم يذهب إلى الحامطة ولم يحاول أن يلتقى بأحد من زملائه . . وقامت مظاهرات الطلبة . . قوية مدمرة . . وضرب البوليس الكثيرين منهم حتى نقل بعضهم إلى المستشفيات كما اعتقل الكثيرون . . وهو لم يصرب ولم يعتقل . . ولا حتى عاد البوليس واستدعاه ليؤكد اتهامه بها حدث . . رغم أنه لم يعبر بعدها موقفه بين الطلبة ولم يعدل عن إمدادهم بأفكاره وكلها أفكار ثورية .

ومد رضوان الدسوفى يده والتقط لقمة من مائدة الغذاء وألقى بها في فمه . . وأخذ يعضخ فيها وهو لا يحس بمذاقها . . ساهما في ذكريات شابه وسائل نفسه . . كيف استطاع أن يقيم من نفسه هذه الشخصية التي تزاوّل كل حقوقها الوطنية . . وتميش كل الأحداث السياسية . . دون أن تعرض نفسها لسطح الحكومة وصب اعتداءات لوليس عليها . .

وايتسم ابتسامة حزينة مسكينة وهو يتذكر والده المرحوم . . إن
أساء هو الذى كون فيه هذه الشخصية . . لا لأنها الشخصية التى
ورثها عنه بل لأن واقع الحياة التى عاشها معه كانت تعرض عليه هذه
الشخصية . .

كان أبوه موظفا نافعا لم يتم تعليمه ولا يحمل شهادة . . وكان من
بين الموظفين الذين يقعون في الممرات على أبواب باقى الموظفين
بمجرد حادهم . . ومرتبته كما كان يعلم لا يتجاوز ثمانية حبيبات ورسا
ارتفع إلى عشرة في أواخر أيامه . . كان فقيرا . . وكان مسئولاً بقره
عن حياة عائلة تضم أربع بنات وصيا واحدا ، ورغم كل ما يعانيه
من فقره فقد كان يعيش هذفا واحدا وهو أن يتم انه تعليمه . . ان
يدخل انه الجامعة التى لم يدخلها هو . . وقد تجرب به أيام مجموع فيها
وتجوع معه العائلة كلها . . ولكن لا يمر يوم دون أن يذهب انه إلى
المدرسة . . وقد كان أبا نطيلما طاهرا لا يقل على نفسه أن يرتكب إثما
يحصل به على ما يكفى حياته . . ربما كان كل ما بقله وينمائه يبه
وير نفسه هي الإكراميات أو البقاشيش التى يجود بها عليه موطفو
الوزارة . . وقد كان محبوا بيهم . . وقد يعالون في استغلاله لخدمتهم
ولكنهم يأتقنونه ويحترمونه .

ومنذ بدأ رضوان الدسوقي يعي الحياة وهو يعيش مرتطبا
باحساسه بوالديه . . لا يخطو أى خطوة إلا وهو بحس حسانه هل
يرضى والده أم لا يرمى . . هل يستطيع والده أم لا يستطيع ولم
يكن في حاجة إلى مناقشة والده أو استئذانه ليخطو خطواته . . إنه منذ
البداية يحس بأن حياته كلها تطلق من حياة هذا الأب . . ووجد
نفسه يعرف أنه أب فقير . . وأنه يشقى منتهى الشقاء لبوفر له
الحياة . . لذلك فقد كان يحس حسانه تلقائيا حتى وهو جالس

أكل . . فقد كان يحتفظ من رعيب العيش الذى أمامه بقطعة للوجبة
النالية حتى يوفر على والده من نفقات إطعام العائلة . . ومنذ دخل
المدرسة وهو يركز كل جهده لينجح في كل امتحان . . إنه لورس في
امتحان فسيكلف والده نفقات عام دراسي آخر . . ونجح . .
ونجح . . إلى أن وصل إلى الجامعة . . وكان دائما وبفضل مساعي
والده يلتحق بالمدارس مجانا . . وبعد أن دخل الجامعة كان يسير على
قدميه من إمبابية حيث يقيمون إلى الجامعة في الجيرة حتى يوفر ثمن
تذكرة الأتوبيس

وربما كان هذا الاحساس بوالده هو الذى دفعه لتكوين شخصيته
بالسبة لشاطفه السياسي الذى واجهه منذ كان طالبا في المدرسة
الثانوية . . فهو رغم أنه وحده نفسه تمثلنا بالاحساس الوطني ومن هواف
تنع الأحداث السياسية والحث عن اسرارها وفهمها إلا أنه لم يشترك
في أى مطاهرة أو أى تحرك سياسي لا لأنه لا يريد أن يعرض نفسه
للويليس ولكنه لا يريد أن يعرض والده للمتاعب . . فهو إذا صرب
هكأن والده هو الذى ضرب . . وإذا اعتقل فكأن والده هو الذى
اعتقل . . وإذا صاع عليه العام الدراسي فكأن هذ العام صاع على
والده .

ورفر المليونير رضوان الدسوقي أنعاسه وهو يستعرض ذكرياته
متأوها كأنه يتألم وهو يستعرض حال انه
إن ابنه مصطفى شخصية أخرى
إنه يشترك في المظاهرات ويواجه رجال البوليس ليصربوه ويعود
إليه مشفوق الرأس .

ربما لأن ابنه لا يحس به ولا يحسب حسابه .. كما كان هو يحس
بأبيه ويحسب حسابه .

لا شيء فيه يدفع ابنه إلى الإحساس به .. أو يدفعه إلى الإيمان
بأن حياته هي نفس حياة أبيه .. أو يدفعه إلى تصور أن أباه يعاني
في سبيله حتى يراعى ألا يسبب له متاعب أكثر .

★ ★ ★

وهم رضوان الدسوقي أن يمد يده مرة أخرى ليلتقط لقمة ولكنه
تنبه فجأة كأنه أفاق من خيالاته .. ونظر في ساعته .. إنها
السادسة .. تأخر عن موعد الذهاب إلى مكتبه أن ابنه يلحظ
كل النظم التي وضعها ليعيش فيها وبها ..
وانطلق خارجا من البيت كأنه يجري ..
وسمع صوت زوجته تجري وراءه صائحة :

— تحدثت مع صفية هانم في التليفون وحكيت لها الحكاية
لتحكيها للوزير .. وقد ذهلت .. كيف يمرؤ البوليس على ضرب
ابن رضوان الدسوقي .. و ..

وكان قد أغلق الباب وراءه بعنف كأنه يكتم صوتها حتى
لا يسمعها ..

الفصل الرابع

لم يستطع الأب رضوان الدسوقي وهو في مكتبه أن يركز كل عقله
على الأوراق التي تعرض عليه .. وقد تعود ألا يشغل عقله
إلا بموضوع واحد إلى أن ينتهي منه ويتقل إلى موضوع آخر . حتى
وهو صبي ، ثم في شبابه وهو لا يزال طالبا كان لا يشغل عقله بأى
موضوع حتى لو كان موضوعا خاصا بحاله إلا بعد أن ينتهي من
الذاكرة التي يزود بها عقله بما هو مفروض عليه .. كان يستطيع أن
يركز كل عقله ساعات طويلة بين الكتب والأوراق التي يدرسها وهو
بعيد عن كل الدنيا إلى أن ينتهي فيعود إلى الدنيا ويترك الحرية لعقله
ليفكر في حاله أو في الموضوعات السياسية التي تشغل بال الطلبة
ويحاول أن يرسم لنفسه خطوطا تحدد كل تصرفاته .. كأنه يحطط لكل
يوم من أيامه .. بل إنه كان يصل إلى حد احتيار كلمات يقولها عدا
لأبيه أو لأمه أو يقولها لزملائه الطلبة أو يضمها خطة سياسية يكر أن
يلقيها في الجامعة . وهو لا يعتمد كل ذلك .. إنها هو دافع تلقائي
من دوافع شخصيته الطبيعية التي كونتها ظروف حياته التي
يعيشها . ولكنه اليوم وهو جالس في مكتبه لا يستطيع أن يركز عقله
على الأوراق أو الموضوعات التي تعرض عليه .. إن صورة ابنه
مصطفى وهو مضروب على رأسه ومصمد بالشاش الثقيل تقمر أمام
عينيه وتعطى وتحجب عنه سطور الأوراق التي أمامه .. والمناقشة
العنيفة التي حوت معه ترن كلماتها في أذنيه حتى كأنه لم يعد يكتب

باستعادة سماعها ، ولكنها تقفز في حباله كأنها حروف مكتوبة فوق حروف الورق الذي بين يديه . وكان يقاوم بعف ليشل عقله من سيطرة ابيه عليه ويتفرع به لعمله . . وقد يتفرع فعلا دقيقة أو دقيقتين ثم لا يلبث أن يعود ابنه مصطفى ويغصص أفكاره ويحد نفسه منسلبا له . .

وقد ضاق بجلوسه في المكتب وهم أكثر من مرة أن يقوم منصرفا . لعله يستطيع أن يبدأ قليلا وهو بعيد عن مركز مسئولياته . . سيتمشى في الشارع المطل على النيل ويترك عقله حرا مع أى تفكير يخطر عليه . . ولكن لا . إن الطام الذى وضعه يفرض عليه ألا يعادر المكتب قبل التاسعة مساء . . وسيبقى حتى التاسعة احتراما للنظام . .

وبعد أن غادر المكتب لم يحاول أن يتجه إلى مكان هادئ، يعينه على أن يترك الحرية لعقله وأفكاره . بل وحده معه ملهوقا على العودة إلى البيت . . وهو يحس أنها لهفة على رؤية ابنه مصطفى والاطمئنان عليه . . ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى توقف مترددا . . إنه لم يسعى بنفسه إلى ابنه . . يجب أن يقاطعه حتى يتركه مقتنعا بأنه غاضب عليه . . ويكفى أن يسمع أخباره من أمه . . ثم إن نظام العائلة لا يفرض عليه أن يرى ابنه في المساء قبل أن ينام . فهو ليس مجبرا على أن يراه بحكم التعود واحترام النظام . . ولكنه ما كاد يقرب بخطواته من غرفة ابنه حتى رابله تردده وتعلبت عليه لهفته . وفتح الباب عليه . . وكان مصطفى راقدا على فراشه متيقظا وكماه تحت رأسه مستندا على الوسادة . . وما كاد يلمح أباه بجانب الباب حتى جذب كعبه من تحت رأسه واستدار راقدا على جنبه يستقبله بظهرة . . وقال الأب وهو يقاوم تهديج أنفاسه :

- كيف حالك ؟

وقال الابن وصوته مكتوم بالوسادة :

- الحمد لله . .

وقال الأب وهو يحاول أن يكون جادا حتى لا يضعف مظهر غضبه على ابنه :

- ألا تشعر بآلام في رأسك ؟

وقال الابن دون أن يلتفت إلى أبيه :

- لا . . .

وقال الأب كأنه استكمل كل شخصيته وبدأ يفرضها على ابنه :

- خيت أمل البوليس الذى كان يتنى أن يسبب لك آلاما عنيفة تقنعك بالأعود إلى الاشتراك في المظاهرات .

ولم يرد الابن بكلمة . . ورفع الوسادة الصغيرة وغطى بها رأسه كأنه يرفض مجرد الظهور في حضرة أبيه . .

واكتفى الأب بأن انسحب خارج الباب وأغلقه وراءه كأنه يريح ابنه من نفسه . . ثم انجه إلى غرفته . . وما كادت زوجته عفاف تراه حتى بدأت من جديد تروى له تفاصيل عاداتها التليفونية مع زوجة الوزير . . وهو واقف يخلع ثيابه ولا يسمعها . . تائها بأفكاره بعيدا عنها . . وانتهى من ارتداء البيجلما وخرج من الغرفة وزوجته لا تزال تتكلم وتحكى . . وانجه إلى حيث الثلاثجة وفتحها . . فقد كان نظام العائلة يفرض على الزوجة أن تحتفظ لزوجها بأطباق طعام العشاء في الثلاثجة لأنه لم يكن له موعد للعودة في المساء حتى تنظرة . . وطاف

بعينه فيما تضعه السلاحه ثم اكتفى بأن مد يده والتقط زجاجة صودا . إنه لا يريد أن يتناول طعاما للعشاء رغم أنه لا يعترف نفسه قد تناول طعام العشاء . فالزوايج الثائرة في رأسه زحمت على بطنه وكأنها سدت معدته فلم يعد يطيق أن يأكل شيئا . وانغم إلى المقعد العريض المريح المحصن ليحلس عليه في الصالة . وألقى بنفسه عليه وفي يده زجاجة الصودا وهو هائم مع أفكاره .

إنه قبل أن يلوم ابنه ومحاسبه على ما فعله يجب أن يلوم نفسه ومحاسبها . إنه منذ أنحب مصطفى وهو يعتبره قطعة منه . صورة طبق الأصل له . ربما لأنه أثبت أنه يستطيع أن ينجح ويصل إلى قمة النجاح الذي أرادته لنفسه فلا شك أن ابنه ولد ليكون ناجحا هو الآخر . سينجح ويكون في منتهى الذكاء ومتنهي قوة الشخصية لجرد أنه ابنه . وقد كان مصطفى يشبهه فعلا في كل ملامح وجهه وفي طوله وعرضه . بل كانت له حركات تلقائية كأنه ورثها عنه . فهو مثله كلما صحك رفع أصبع يده وهرش على أنفه . كأنها حركة عصبية يشيرها الضحك . أو كأنه يعطى خجله من نفسه كلما ضحك . إلى هذا الحد كان يتصور ابنه كقطعة منه . وبما أنه منذ طفولته تعمد أن يقيم حياة تكمل له النجاح فلا شك أن ابنه أيضا سيعيش حياة النجاح . أي كان يتقن في مستقبل ابنه ثقة عمية . ويعتمد على عقليته وشخصيته اعتادا كاملا في تنشئة نفسه بنفسه حتى كان لا يسذل جهدا خاصا من ناحيته في تربية أو تكوين عقلية ابنه وشخصيته . بل كان هناك تباعد غير مقصود بينهما . فكل ما يحتاجه الابن تقوم الأم بتوفيره له . وكل أسرار وتفصيل حياته مع أمه لا معه . وهو أيضا يكتفى بالاطمئنان على ابنه والإلمام بأخباره

بما يسمعه من زوجته . وكل ما يجمعهما هو اللقاء على مائدة الغداء . وقد يحظر عليه سؤال في هذه الساعة يسأله لابنه . أو يحظر على ابنه حكاية يرويها له . وإن كان ما يجمعهما هو فرحة كل منهما بلقاء الآخر . ومتعة التزود بالنظر إليه . وإن كان الآن يرجع أن فرحة ابنه بالنظر إليه كانت دائما أقل كثيرا من فرحته هو به . ربما كان ابنه لا يحرص على لقاء فترة الغداء إلا احتراما للطعام الدائلي الذي فرض عليه .

ورفع الأب زجاجة الصودا إلى فمه وارشف حرعة كبيرة كأنه يحاول أن يجمد بها الروابع التي تعصف به . ثم عاد ساهما مستلما لعصف الزواجع

— إنه لم يقدر أن شخصية الفرد تتكون وفقا للظروف والحالات التي يشأ فيها . لذلك لا يمكن أن يكون لاسه نفس شخصيته ولا نفس اتجاهات عقليته . لا يمكن أن يرث عنه هذه الشخصية والعقلية حتى لو كان قد ورث عنه ملامح وجهه وحطوط قامته . فكل منهما قد ولد في ظروف وحالات تختلف عما ولد فيه الآخر احتلافا كاملا . لقد ولد هو في ظروف الفقر وحالات الحرمان بينما ولد ابنه في ظروف منتهى العس وحالات منتهى الشبع . كان أبوه فقيرا محروما أما ابنه فأبوه - أي هو - ثرى متعم

وهو يدكر أنه مد وعى فقر أبيه بدأ يعود نفسه على تحمل مسئولية نفسه . أي بدأ يراعى إعفاء أبيه من تحمل مسئولية عنه . وكان هذا الإحساس بالمسئولية هو الذي يسيطر على كل فكره وعلى كل حركة من حركاته . وهو إحساس يربطه بأحاساسه على ما يمكن أن يمس أناه . وهو يدكر يوما في صباه كان واقفا بين صبيان الحارة حول

نائع الدندورمة . . وكل منهم يدفع قرشا ويلتهم الدندورمة المعبأة في قرطاس من البسكوت . . وهو يذوب مشتتها ولسو حسة من الدندورمة . . ولسانه يجرى بين شفتيه يبللها كأنه يحرضها على تذوق الدندورمة . . وليس معه قرش يعطيه للبائع . . إن أباه لا يعطيه إلا قرشا واحدا كل يوم حميس حتى يوفى له متعة أجازة الجمعة وقد سبق أن دفع قرشا هذا الأسبوع ثمنا لشراء طبق من حمص الشام تمتع بالثمنه . . فمن أين يحصل على قرش آخر . . وخطر على باله أن يصعد إلى البيت ويدخل المطبخ ويأخذ أحد الأطباق الفارعة ويعود ويعطيه للسائح بدلا من القرش . . لاشئ أن الطبق على الأقل يساوى قرشا . . وهو يعلم أن كثيرا من الصبة يأخذون - ولا يريد أن يقول أنهم يسرقون - شيئا من لوازم البيت ليبادلوا عليها ما يريدون شراءه من البائع . . ولكن لا . . إنه لو أخذ طبقا فسيضطر أبوه لشراء طبق آخر يتحمل ثمنه . . وقال لنفسه أنه يمكن أن يعطى السائح هذا الطبق كرهينة مقابل قرطاس الدندورمة ويترده منه في يوم الخميس القادم بعد أن يدفع له القرش الذي يعطيه له أبوه . . ولكن لا . . إنه بذلك كأنه يخدع أباه ويفشه ويحون نفقة فيه ويتحدى حالته . . حالة الفقر . . وكانت النتيجة أن حرمة إحساسه بمسئوليته عن نفسه وعن أبيه من مذاق الدندورمة . . بل إنه من يومها وحتى اليوم يرفض تناول الدندورمة كأنه لا يزال يعتبرها محرزا له على الخروج عن مسئوليته عن نفسه . . ومن يومها كره مجرد مذاق الدندورمة .

وبعد أن نها وعيه أكثر أصبحت كل مسئوليته منحصرة في تحقيق هدف واحد . . حتى لو كان هدفا بعيدا . . وهو هدف التخلص من

الفقر . . وكانت الظروف والحالات التي يعيشها تحميه من أن يقدم على تحقيق هذا الهدف بارتكاب أى إثم أو أى اعتداء أو أى خطيئة إنها ظروف وحالات لا يظهر فيها أى خاطيء . . ووالده رغم استمرار فقره لم يقدم أبدا على أى خطيئة تمس شرفه وكيانه الطيب . . لذلك فقد نما وهو يؤمن بأن الطريق الوحيد الذى يحقق الهدوء هو طريق النجاح . . وأيضا النجاح النظيف المشروع . . مهما طالت . . الطريق واستغرق من عمره سنوات . . ولذلك فقد كان حريصا على أن ينجح في كل امتحان من امتحانات دراسته . . كما أصبح يؤمن بأن النجاح لا يقتصر تحقيقه على نيل الشهادات بل يجب أن يتعلم أكثر ويفهم أكثر ويكتشف أسرار الحياة . . وأصبحت أقوى هواياته هى هواية القراءة . . قرأ كثيرا وفي مختلف الموضوعات . . وأصبح مترددا على المكتبات التى يستطيع أن يقرأ فيها مجانا . . وهو يحس وهو يقرأ كأنه يتفرج على حفايا العالم . . لا يصرق بين متعة قراءة كتاب ومتعة الذهاب إلى السينما فكلاهما يحقق المشاهدة مشاهدة العالم . . وكان هناك دائما ما يثيره ليقرا أكثر . . لقد سأل نفسه مرة وهو يستمع إلى الراديو . . كيف يصل الصوت من أمريكا إلى مصر . . إن الأصوات لا تضع ولا تذوب ولكنها تظل معلقة في الهواء الذى يلف كل العالم إلى أن يلتقطها جهاز خاص وينقلها إلى الأسماع . . فكيف اخترع هذا الجهاز وماهى أسرارها . . ووجد نفسه يجرى داخل المكتبات ويقرأ كتبا عن علوم الراديو استطاع أن يكتشف من خلالها كل الأسرار .

ولم يكن نجاحه في الامتحانات وإدمانه القراءة هما كل ما أوحى إليه به إحساسه بمسئوليته عن نفسه . . لقد وجد نفسه يريد أن يعرف ويكتشف كل أهل مصر . . ويريد أن يدخل كل المجتمعات ليتفرج

على كل مجتمع منها . . المجتمعات الفقيرة حتى منتهى الفقر .
والغنية حتى منتهى الغنى . بل يريد أن يكشف كل أحياء
مصر . . كل حي له شخصية تختلف عن شخصية الحي الآخر . .
حتى الدراسة والحسين . . وحى الزمالك وجاردن سيتي . . ولم يتعود
من يلقي بنفسه على أى فرد أو على أى حي من الأحياء السكنية ولكنه
كان ينتهز الفروض المحترمة التى تتيح له أن يعرف كل الناس . . وأكثر
من ذلك . . لقد كان يتطلع إلى التعرف بأشخاص القادة الذين
يسمع عنهم . . والقادة ليسوا هم السياسيين المحترفين وحدهم . .
هناك قادة اقتصاديون . . وقادة من العلماء . . وقادة من الفنانين . .
لقد أحس عندما التقى مرة بيوסף وهى بنفس إحساسه عندما التقى
برئيس الوزراء . . وكان أبرز ما وصل إليه هو اكتسابه صداقة كل
زملائه الطلبة . . رغم اختلاف طبقاتهم واختلاف اتجاهاتهم . . إن
الصداقة تعتبر عنصرا قويا من عناصر الإقناع . . لذلك كان يستطيع
أن يقنع بأرائه الطالب الماركسى والطالب الرأسمالى والطالب
المتدين . . بل إن شخصيته الهادئة التى كانت تبعده عن الاشتراك فى
أى تحرك عنيف رغم آرائه الثائرة كانت تدفع كثيرا من المسؤولين عن
الطلبة إلى الالتجاء إليه على أمل أن يستعينوا به على تهدئة تحركات
الطلبة . . كان ناظر المدرسة يدعوه ويرجوه . . ومدير الجامعة . . بل
وزیر الداخلية . . وكل الكبار الذين يمدون أصابعهم داخل مجتمع
الطلبة لإثارته أو لتهدئته . . وهو لم يكن أبدا يخضع لأى واحد من
هؤلاء الكبار كعميل له . . ولكنه عرف بينهم بالمصارحة الهادئة . . ولم
يخف عن واحد منهم رأيه لو كان معارضا له . . لذلك فلم يكن الكبار
يعتمدون عليه اعتقادا مطلقا ولكنهم كانوا لا يصبون عليه نقمتهم لأن
هذوءه يطمئنهم . . وهو لم يكن يجهه رأى أحد منهم فيه ولكنه كان

يتعلم ويكشف كيف يفكر كبار المسؤولين . . وما هو أسلوب تعاملهم
مع الناس وتعامل الناس معهم . .

وكانت هذه الشخصية تمر بها أحيانا نوسات من السخط
العنيف . . السخط على الفقر الذى يعيش فيه . . ويكاد يقرر أن
يبارس العنف والهدم تعبيرا عن سخطه . . لماذا لا يشترك على الأقل
فى مظاهرات الطلبة . . ويقذف الحكومة بالطوب ويحرق سيارات
الأغنياء ويحطم كل ما تعرضه الدكاكين عما هو محروم منه . . إن
الدوافع السياسية قد تكون حجة لإطلاق العنف ولكن الدافع
الواقعى هو السخط على الفقر . . السخط على هذا المجتمع الذى
يرضى بأن يعيش فيه أناس جوعى يقتلهم الجوع وأناس شبعانون إلى
حد أن يقتلهم التخممة . . ولكن رضوان كانت له دائما القدرة على
التغلب على نوازع السخط . . لأنه مؤمن بالطريق الوحيد الذى
يخلصه من الفقر . . وهو طريق النجاح المشروع . . واستلامه
لعوامل السخط قد تسد أمامه هذا الطريق ويبقى دائما فقيرا . . كما
أنه مقتنع بأن دوافع الحركة الوطنية السليمة لا يمكن أن تنطلق من
السخط ومن الفقر . . ولكنها تنطلق من الفكر الذى توافرت له
الدراسة، ووصل إلى القدرة على التقدير الواقعى السليم . . وكل
الأحداث السياسية بما فيها الثورات الوطنية لم يدفع إليها ولم يتحمل
مسئوليتها الفقراء الساخطون . . حتى لو كان السخط هو الذى يوفر
لها أساس قوتها . . ولكنها كلها أحداث وثورات دفع إليها وسخط لها
المفكرون الوطنيون . . وكان الزعيم مصطفى كامل أو سعد زغلول أو
غيرهما من قادة الأحداث السياسية من الأغنياء الثراء . . حتى لو كانوا
من الساخطين فلم يكن سخطهم سخطا شخصيا على الفقر . .

ولذلك يجب أن يمر نفسه من مسخه على فقره ويمر فكره من سيطرة إحساسه بهذا الفقر . . حتى يتفرغ لتحقيق سلامة تفكيره الوطنى . .

ولم يكن وهو يحمل بالارتفاع فوق الفقر يحصر أحلامه في تصور نفسه . . بل كانت أحلاما تشمل أباه وأمه وأخواته البنات . . إن الفقر ليس حالة فردية ولكنه حالة اجتماعية أقرب ما فيها إليه هو حالة عائلته . . وهو يحمل برفع أبيه عن الفقر كأنه يتمنى أن يعوضه عما عاناه من الإنفاق عليه حتى وصل به إلى الجامعة . . ويحس بمسئوليته عن أمه وأخواته البنات كما كان يحس بمسئوليته عن نفسه . . وقد كان يحمل هذه المسئولية داخل مسئولية أبيه . . ولكنه سينفرد يوما بهذه المسئولية ويحقق بها ما لم يستطع أبوه أن يحققه لهم . . وقد قرر أن يعمل هذه المسئولية منذ اليوم الأول الذى أصبح فيه خريجاً جامعياً . . من يومها قرر ألا يحمل أباه أى مسئولية مالية عنه أو عن العائلة . . وعلى الأخص مسئولية الإنفاق . . إنه لم يعد يحمل أباه مسئولية إنفاق سليم واحد . .

ولم يسع بعد تخرجه في الجامعة ليكون موظفا في الحكومة . . إن أباه عاش فقيراً محروماً لأنه كان موظفاً في الحكومة . . ربما لو كان قد بدأ حياته حراً في أسواق الحياة لما فرض عليه الفقر . . حتى لو كان قد بدأ دون أن يتم تعليمه وكمجرد خادم كما بدأ في الحكومة . . إن الوظائف الحكومية هي أضيق مجال للنجاح وللحصول للحلال . . بل رسماً كانت أضيق مجال لإطلاق الفكر البناء وتكوين ذكاء الفرد في التعامل مع الحياة . . وهو منذ البداية يكره الوظيفة الحكومية ويحتقرها على مختلف درجاتها . . ورفض في إصرار أن يعين معيداً في الجامعة . . فقد كان من أوائل الخريجين الذين يعهد إليهم بالتدريس

الطلبة ولكن المعيد حتى بعد أن يصبح مدرساً ثم أستاذاً جامعياً . . موظف حكومى . . وهو لن يقبل على نفسه أبداً أن يكون موظفاً محسوباً إلا إذا كتب عليه الله الفشل . .

وسد كان طالباً في الجامعة وهو واثق أنه سينجح في الامتحان وسخون من أوائل الخريجين لذلك فقد سبق تخرجه تفكيره في تحديد مساعده واستطاع بشخصيته الهادئة المبهدة أن يقيم اتصالات بكل من يطمح في الاعتماد عليهم وما يوفر له حق الاختيار بين طرق الحداثة واختار عقب تخرجه أن يعين محاسباً في شركة المنسوجات . . إنها شركة حرة وليست حكومية . . وهى شركة كبرى وامتدت وتحقق أرباحاً ضخمة . . وهو يريد أن يدرس وهو في داخلها كيف تستطيع شركة صناعية تجارية أن تحقق كل هذا النجاح . .

وقد عين في هذه الشركة بمرتبة خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر يكاد يكون أكثر من ضعف مرتبة أبيه الذى مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً وهو موظف في الحكومة . . وقد وضع في جيبه مئزره حيوات . . إنه في حاجة إلى مبلغ كبير لتغطية حاجته في سعيه نحو مستقبله . . ثم وضع باقى المرتبة بين يدي أمه . . فقد حمل من أن يضع نقوداً في يد أبيه . . ورغم فرحة أمه والعائلة كلها بهذا الدخل الجديد الذى حاهم به الابن . . إلا أنه لم يدر حوله أى جدال ولا تعبير في وصع هذا الابن بينهم . . ولا حتى بالإفصاح في شكره . . ووالده لا يزال يعاتبه ويلومه فقد كان يريد أن يرى ابنه موظفاً في الحكومة . . الحكومة أبقى يا بني . . وينحنى الابن يقبل يد والده ويقول : اطمئن يا بابا . .

وقد استطاع بسرعة أن يكتسب ثقة أصحاب الشركة وارتقى في

عمله واتسعت مسؤولياته وارتفع مرتبه حتى تعدى المائة جنيه في الشهر . . . ووصل إلى أن أقام لنفسه شركة تصدير واستيراد خاصة . . . وكلما ارتفع عن الفقر رفع عائلته معه . . . وانتقل البيت من حارة نصير بالعباسية إلى الشارع الزاهي بالزمالك . . . وكان مصرا على أن يعيش دائما بجانب أمه وأبيه . . . حتى بعد أن تزوج وكادت أمه قد ماتت عاش معه أبوه في بيت الزوجية . . . وبعد أن مات أبوه أقام له جنازة كبيرة واشترك كبار الشخصيات في تشييع حنايا الرجل الفقير الذي كان حادما في الحكومة يقف في الممرات أمام أبواب الموظفين . . . وهو يشيع أباه إلى قبر فخم هو الذي كان قد أقامه . . . ويسير في الجنازة خلفه وهو فخور لأن أباه مات وهو ليس فقيرا محروما من إحساس المجتمع به . . . إن أرقى شخصيات المجتمع تسير وراء حنايا أبيه .

هذه هي شخصية رضوان الدسوقي . . . وهذه هي الظروف والأحوال التي تكونت فيها شخصيته . . .

أبدا . . . لا يمكن . . .

إنه منذ ولد وهو لا يحس بأي نوع من المسؤولية . . . ولا تدفعه أي ظروف أو أحوال تحيط به إلى هذا الاحساس بالمسؤولية . . . يكفي أن يصبح واه . . . واه . . . حتى تستجيب له الدنيا كلها ويوصل إلى كل ما يريده . . . فأبوه لم يحبه إلا بعد أن أصبح ثريا . . . وشخصية أبناء الأثرياء تختلف اختلافا كاملا عن شخصية أبناء الفقراء . . . إن ابن الثرى لا يحس بأي نوع من الحرمان حتى يحاول أن يستغل كل طاقته الشرية في التحلص منه . . . يستغل على الأقل عقله الذي يكون شخصيته حتى لا يستمر محروما . . . إن ابنه مصطفى لم يكن في حاجة إلى عقله ولا إلى مجرد التفكير في أي مطلب من متطلبات الحياة

وفند رضوان الدسوقي تنهيدة حزينة . . . ربما كان يجب أن يلوم نفسه . . . فهو أيضا لم يحمل مسئولية بناء شخصية ابنه مصطفى . . . لقد ترك أمه منذ البداية هي المسئولة عنه . . . هي التي تزوده بكل الكلمات والصور التي تربي بها عقله . . . ولكنها لم تكن تربي فيه شيئا أو تربي منه شيئا . . . كانت كأنها جارية له . . . يأمرها ولو برمشة عين فتطيع فوراً . . . كل الأمهات هن جوار لأسانئهن وخصوصا الأولاد فهن يستسلمن لهم كأنهم أمسياد . . . وهو كآب كان فرحا بابنه فرحا كبيرة منذ أنجبه . . . ولكنه لم يكن يعتمد أن يعبر عن هذه الفرحة . . . هتمام تربيته وتوسع بناء شخصية هذا الابن . . . كانت كل فرحته محصورة في زهوه وافتخاره بأنه أجيب انثى يعيش الفقر الذي عاشه أبوه . . . ولن يعاني الحرمان الذي عاناه أبوه . . . وكان يسرف في الاستجابة لمطالب هذا الابن ويسخر في الإيفاء عليه . . . فهكذا يجب أن يعيش أبناء الأغنياء .

وكان دائما مطمئنا اطمئنانا كاملا على مستقبل ابنه . . . إنه هو نفسه حقق مستقلا في منتهى النجاح ولا شك أن ابنه سيرث هذه القدرة على النجاح . . . إنه شخصية مستمرة لشخصيته هو . . . وإن كان أحيانا يصدم بعشل يلحق بابيه أو بتصرفات شاذة له تتعارض مع اطمئنانه إلى مستقبله . . . ولكنه يعود ويقنع نفسه بأن ابنه لم يعشل لأنه غير قادر على النجاح . . . ولم يقع في هذا الشذوذ لأن طبيعته شاذة . . . أبدا مصطفى إذا كان يرسب في الامتحانات المدرسية والجامعية فلمجرد أنه ليس متمجلا النجاح لا لأنه لا يستطيع النجاح . . . أما هو فقد كان ينجح دائما لأنه كان متمجلا النجاح حتى يتخلص من الظروف والأحوال التي يعيشها . . . أما ابنه فهو لا يعيش ما يدفعه إلى تمجلا النجاح . . . إنه يعيش مطمئنا راضيا عن كل ظروفه وأحواله

ومن حقه ألا يتعمل النجاح في المدرسة ويشغل نفسه بدراسة الحياة نفسها . . والخوض بنفسه في داخل كل ما فيها . . إنه لا يلعب . . ولا يستهتر . . ولكنه يدرس الحياة . . ودراسة الحياة أهم من الحصول على شهادة مدرسية لا تعرفه عن قيمة باقي الطلبة . . هكذا يعيش كل أولاد الطبقة الثرية . . فكل منهم لديه الوقت الكافي ليتعمق في الحصول على أى شهادة دراسية . . مطمئنا إلى أن معه شهادة الحياة . .

وزفر رضوان الدسوقي أنفاسا ساخنا على نفسه . . لقد تعود أن يلتمس الأعداء لغشيل ابنه مصطفى وانحرافاته . . ويحتلق منطقا كاذبا حتى يظل محتفظا بثقته فيه واطمئناؤه إلى نجاحه في ساء مستقبله . . وليعترف بأن السبب المباشر لكل ما يسببه ابنه له من متاعب وهواجس هو أنه أهمل تربيته وإعداده للمستقبل . . أهمل في ساء شخصية هذا الأسر وتكوين عقليته . . وليس هناك سبب لإهماله إلا إنه يعطى كل نفسه وكل حياته لعمله . . ولتحقيق مزيد من نجاحه في تكوين ملايين الجنيهات والدولارات . . دون أن يعطى من نفسه أو من حياته ما تحتاج إليه عائلته ومن بينها ابنه . . إن كل ما يعطيه هو بعض ما يدره عليه هذا النجاح من هذه الجنيهات أو الدولارات . . وعروره بنفسه يشمل غروره بعائلته وبنائه

ورفع رضوان زحاجة الصودا وسكب ما بقى منها في جوفه لعله يبدأ . . ثم قام يسير وروبعته النفسية تترنح به إلى أن وصل إلى فراشه وألقى بنفسه بحانب زوجته . . لعله ينام

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالي ترك فراشه وكانت زوجته قد تركته قبل أن يستيقظ كما تعود . . وبدأ يعد نفسه للخروج إلى مكتبه . . وكان في

همة للاطمئنان على ابنه . . كيف أصبح رأسه المضروب . . ولكنه نعد ألا يسأل عنه . . أو يذهب إلى غرفته ويفتح الباب عليه . . يجب أن يظل محتفظا بحاله بمظهر غضبه وعدم رضائه عنه . . معتمدا على أن يلتقي به صدقة دون أن يسعى إليه . . أو تحدثه زوجته بأحواله دون أن يسألها عنه . . ولكن مرت الدقائق وانتهى من ارتداء ثيابه وتناول إفطاره وهو لا يرى ابنه ولا يسمع صوته ولا تحدثه زوجته عنه . . واضطر أن يسألها وهو يتظاهر باللامبالاة :

— كيف أصبح مصطفى ؟

وقالت زوجته عفاف وهي منقبضة في استسلام :

— خرج مبكرا . .

وارتعش كان مفاجأة قد صدمته وصاح :

— خرج ورأسه مضروب ولا يزال ملفوفا ؟ !

وقالت الزوجة وهي تتهد في حسرة :

— أكد لي أنه سليم .

وعاد الأب يصيح :

— وإلى أين ذهب ؟

وردت الأم في استسلام :

— لم يقل لي . . وقد أخذ منى مائة وخمسين جنيها قبل أن

ح

وصاح الأب :

— ولماذا أعطيته ؟

وقالت وصوتها يتهدج :

— لقد طلب في إلحاح وإصرار . . ولم أستطيع أن أصده عما يريد . ولكنه كان يطلب خسيانة وأفعته بأن يكتفى بهائه وخسب

وقال الأب كأنه يسخر من نفسه :

— وطعما لم يقل لماذا يريد كل هذا المبلغ . .

وفتحت الأم عينيها إلى آخرهما مبخلقة في وجه الأب كأنها تحذره من أن ينهم الأب أي اتهام وقالت :

— لقد قال لي أنه في حاجة إلى هذا المبلغ . وابني صادق دائما ولا أستطيع أن أحرمه مما يحتاج إليه

وقام الأب من جانب مائدة الإفطار . . وخطا خطوات سريعة نحو الخروج من البيت دون أن يودع زوجته بكلمة وهو يردد

— ربما يستر . . ربما يستر . .

وهو حائر تعدبه الحيرة

إنه لا يدرى كيف يشأ أولاد الأعياء وتكون شخصياتهم لأنه هو نفسه نشأ وتكونت شخصيته وهو من أولاد الفقراء

الفصل الخامس

ترك مصطفى البيت مسكرا بعد أن دس في جيبه المائة والخمسين جيبها التي أحدها من أمه وهو بخطو خطوات عاجلة غنيمة كأنه بصرت الأرض بقدميه . . لم يكن يتلذذ في خطواته ويتأيل معها كما كانت عادته . . وحتى عندما ركب سيارته لم يركبها وهو ينسم بيه وبين نفسه متباهيا بهذه السيارة التي تطير به . . ويحلق بها فور الشر الذي يسير على الأقدام . . أو ينسم وهو مقبل على متعة القيادة ملقى آدميتها لقد ألقي نفسه أمام محلة القيادة وهو متجهم وفكره مشغول بأراء جادة يحس كأنها آراء في منتهى الخطورة . . ورأسه مربوط بالشاش الثقيل ولا يرال يضح برنين الآلام التي حلقنها الضربة . . ولكن أفكاره متمكة منه بقوة تنقلب على ما يمكن أن يحس به من آلام . . إنها أفكار جديدة عليه ولم تطرأ على ذهنه أبدا منذ أحس بالوعي وحتى بعد أن التحق بالجامعة وعاش فيها بين الطلبة ثلاثة أعوام وهو متباعد عن زملائه . . أو متعاليا عليهم . . إنها أفكار سياسية تنطلق من إحساس وطني جارف . ربما بدأت تستحوذ عليه بعد أن بدأ يجتمع برملائه في بوقية الكلية . بل إنه من يومها وهو يحس أنه طالب في الجامعة بعد أن كان يترفع عن اعتبار نفسه مجرد طالب حاملي ربما كانت الجامعة لا تحقق شخصية الطالب فيها إلا بعد أن يتشوعب إحساسه بمسئوليته السياسية الوطنية . . إن الجامعة لا تمنح الطالب مجرد الدروس العلمية المقررة ولكنها تمنحه

الشخصية التي يستطيع بها أن يتحمل المسؤولية العامة عن كل ما يجري في الوطن أو ما يتعرض له .. مسئولية سياسية .. وهو قد بدأ يحس بهذه المسؤولية ويدأ يحس بأنه طالب جامعي ..

ولم يكن مما يدور في فكره مراجعة النقاش الحاد الذي جرى بينه وبين والده .. أنه متباعد دائما عن أبيه .. وتعود أن يكون حوا حتى عن أبيه .. بل إنه اليوم يحس بشخصية أبيه أكثر تباعدا عنه .. بل لقد طرأ عليه إحساسه بأن أباه مليونير .. أى شخصية تنتمي إلى عالم آخر غير عالم الغلبة الذي يعيش فيه أغلبية زملائه الطلبة .. وهو حتى الأيام القليلة التي مضت لم يكن يقدر أن أباه مليونير .. يراه شخصا طبيعيا ويعيش معه مجتمعا طبيعيا كان كل البشر من أصحاب الملايين ولا يمثلون طبقة شاذة بين طبقات المجتمع الإنساني ..

المهم أنه لم يهتم بأن يشغل فكره بما جرى بينه وبين أبيه من مناقشة .. وكان كل ما يسيطر عليه هو مراجعة ما سمعه في مظاهرة الطلبة أس من هتافات .. إن الهتاف لم يكن قاصرا على رفض رفع الأسعار .. وخصوصا رفع سعر رغيف العيش .. كان المظاهرة لم تكن لحل موضوع العلاء فحسب .. فقد كانت الهتافات تشمل مواضيع سياسية أخرى لم يكن يخطر على باله أنها يمكن أن تكون مواضيع يمكن أن تثير ثورة .. لقد كان الطلبة يهتفون .. يا أمريكا لمى فلوسك بكرو الشعب يدوسك .. وكانوا يهتفون .. الصهيوني فوق ترابى والمباحث على نابى .. وهتفوا .. إحنا الطلبة مع العمال ضد تحالف رأس المال .. وهتفوا .. إحنا الطلبة مع العمال ضد حكومة الاستغلال .. و .. وكثير من الهتافات حول موضوعات لم تكن تخطر على باله ولم يكن يتصور أنها يمكن أن تثير الطلبة .. وربما

لأنه لم يكن يهتم بالموضوعات السياسية ولا يشغل رأسه بها .. وقد مضى ليله كله بعد أن فوجئ .. بهذه الهتافات يحاول فهمها .. ويحاول أن يحدد لنفسه موقفا منها .. وخطرت على ذهنه عشرات الأفكار وهو نائه بينها .. وهو لا يزال يفكر ..

إلى أن وصل إلى الجامعة .. وركن سيارته بعد أن رأى البوليس يحاصر كل الكليات .. وسار على قدميه حتى باب كلية الهندسة فصاح في وجهه عسكري واقف على الباب .. لعله عسكري مخبرات فهو يرتدى ملابس مدنية وليست عسكرية ..

وقل أن يهم مصطفى بمجادلته وهو يعلم أنه لم يتعود أن يحمل كاربنيه الجامعة معه صاح ضابط البوليس الواقف قريبا :

— دعه يا عسكري ..

ثم تقدم الضابط بنفسه وصافحه قائلا في رقة :

— صباح الخير .. تفضل يا أستاذ ..

لعه عرفه .. وعرف أنه ابن الشخصية الهامة المليونير رضوان الدسوقي .. أولعل وزير الداخلية بعد أن حادث أمه زوجته أصدر أمرا لرجاله بأن يراعوا وجود ابن رضوان الدسوقي بين الطلبة ..

وكانت الكلية مزدهمة بالطلبة رغم الوقت المبكر .. وشاهدته نبي من بعيد فجرت إليه وقالت له وعيناها متعلقتان برأسه الملفوف مشاشه :

— لماذا خرجت وجئت .. إننا متأكدون أنك في حاجة إلى الراحة .. وكنا ننوي أن نزورك في البيت للاطمئنان عليك ..

وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينه :

— لم تعد لى راحة إلا معكم ..

ورفع يده يضغط بها رنين الألم ثم تقدم نحو الزحام المتجمع في البوفيه .. وقام محيى الدين عبد السلام يستقبله فرحا :

٩ — أهلا بالبطل ..

واندفع إليه الطالب فتحن إبراهيم واحتضنه وأخذ يقبله ثم قال :

— دعنى أقبل رأسك حتى أتيارك بها .. كل ضربة وانت طبيب ..

وعاد محيى الدين يصيح :

— هل سمعت بالخبر ..

وقال مصطفى الضعيف الذى تنهكه آلام رأسه :

— أى خبر ؟

وصاح محيى الدين كأنه يزغرد بإلقاء خطاب سياسى :

— لقد عدلت الحكومة عن رفع سعر الرغيف .. أرفع أى سعر .. أوقفنا موجة الغلاء .. والفضل ليس لنا وحدنا .. لقد قامت جامعة عين شمس بمظاهرات أعنف .. وجامعة الإسكندرية .. والمنصورة .. وجامعة أسبوط .. وكل الكليات والمدارس حتى أطراف الصعيد .. كما أن العمال .. حتى عمال المؤسسات الحكومية .. قاموا بمظاهرات .. لقد كانت ثورة استطاعت أن تفرض مطالبها على الحكومة .. ولكنبقى شيء ..

إن الحكومة لم تفرج حتى الآن عن المعتقلين وإن لم تفرج عنهم اليوم فقد قررنا أن نقوم بالتظاهر غدا ونفرض عليها الإفراج عنهم .

واستدار محيى الدين إلى باقى الطلبة مستمرا فى الكلام .. ومصطفى واقف يحاول أن يستوعب ما يقول ونهى بجانبه وهى متعلقة بالنظر إلى رأسه الملفوف فى الشاش كأنها تربت عليه بعينه . وقالت ضاحكة :

— لو كنت لم تدفعنى بعيدا عن عصا البوليس لكنت أنا الآن التى ترهب وتعايق برأس مربوط ..

واكتفى مصطفى بالرد عليها بإبتسامة فائرة .. ، لقد شذت مقعدا من تحت طالب كان يجلس عليه لتحلس عليه مصطفى حتى يرتاح .. وظلت تحاول إضحاكه بكلماتها كأنها تعتمد التحفيف عنه .. ولكن مصطفى لا يضحك وكأن فكره مشغول بعيدا عنها . إلى أن توقف محيى الدين عبد السلام فترة فقال له مصطفى هامسا :

— هل أستطيع أن أنفرد بالحديث معك .. إنى فى حاجة لأن أعرض عليك بعض أفكارى ..

وتلفت محيى الدين حوله كأنه يطمئن على الطلبة المحيطين به قبل أن يتعد عنهم لحظات .. ثم صحب مصطفى ووقف بجانب الشجرة القريبة من البوفيه .. ولحقت بهما نهيى .. كأنها لا تسمح لأحد بأن يخترق بمصطفى بعيدا عنها . إنها هى المسئولة عنه .. وانطلق محيى الدين قائلا لمصطفى وقد أصبحا تحت الشجرة :

— هل عرضت الموضوع على والدك .. هل سيتدخل بنفسه حتى يجمعنا مع البوليس ..

وقال مصطفى وهو يواجه محي الدين بنظرة إصرار :

— أرجوك أن تعفيني من أى اتصال بالذى فيها نجحنا . . إنى أنا الذى بينكم وليس والذى . .

وقال محي الدين فى لحته الخطابية :

— إننا لا نطلب منه خدمات خاصة . . إننا نطالبه بالسعى لدى الحكومة حتى يقنمها بمراعاة المبادئ العامة التى تقوم عليها حقوقنا فى إطلاق آرائنا . . المبادئ التى تحرم على البوليس الاعتداء علينا . .

وقال مصطفى فى حدة :

— إن أبى لم يتعود أن يتدخل أو يسمى لدى الحكومة خارج ما يخص أعماله . .

وصاح محي الدين :

— ولكن الحكومة اعتدت عليه باعتدائها على ابنه . . أى الاعتداء عليك . . وقد يقدر أن كل الطلبة أبنائه . . وهو بمحيمهم عندما يحى ابنه . ابن رضوان الدسوقي . . هو ابن أى مواطن . .

وقال مصطفى فى عنف كأنه يهدد :

— يجب أن تعتبروا أنى معكم بشخصى . . حتى أبقى معكم . . أما إذا اعتبروني مجرد ابن الرجل المشهور . . رضوان الدسوقي فلانى مضطر أن أبتعد عنكم . . وأنا لا أريد من أبى أن يحمينى كما أنى لا أفكر فى حمايته . .

وقال محي الدين كأنه يتراجع معتذرا :

— طبعاً إننا لا نعرف إلا أنت . . ولا يهنا إلا أنت . .

لـ إليك مندوقفت بيسا ونحن نعتبرك شخصا آخر غير كل ما نعرفه عن أهلك . . وإن كنت لا أخفى عنك أننا فوجئنا بأن هذا الابن من هذا الأب . . والمهم الآن . . لقد قلت لى أنه قد طرأت آراء جديدة على أفكارك

وابتلع مصطفى ريقه كأنه يسترجع هدوءه بانتلاع ذكر أبيه . . وقال :

— إن المظاهرة التى قمنا بها أمس لم تقتصر على الطلبة بعدم رفع الأسعار . . وقد سمعت هتافات تنادى بمطالب وطنية أخرى كثيرة . . أنا نفسى لم أكن أفكر فيها . بل إنى لا أفهم موقف الطلبة منها . . وماذا يريدون . . حتى أريد معهم . .

وقال محي الدين مقاطعا :

— إنها كلها موضوعات لا تكف عن مناقشتها . . وستفهمها بكل تفاصيلها بعد أن بدأت تشترك معنا فى المناقشات

وقال مصطفى فى حماس :

— أنا لا أقصد أن أفهمها وحدى . بل أقصد أن يفهمها كل أفراد الشعب حتى يتحد منها موقفا واحدا يحقق وحدة كاملة كوحدةنا فى مظاهرات الأسس التى فرضت على الحكومة المدول عن رفع الأسعار . . والصحف التى من المفروض أن تكون مشولة عن توير الشعب بكل ما يمس الوضع الوطنى لا تبيح عرض هذه المناقشات على صفحاتها . . بدليل أنى فوجئت بهذه الموضوعات رغم أنى أقرأ الصحف . . أحيانا . .

وقاطعه محي الدين ساخرا .



في 19 ادي الغلابية

مديبات المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

مكتبة عربية

احسان زعيبالفدوس

أخبرنا من أفراد شلة البوليه . . مرسى ومرضى . . واكمل عدد المجتمعين . . وقال محي الدين في هدوء :

— إن منشورات كثيرة يصدرها طلبة . . وكل منشور ينسب إلى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات . . حتى حزب الحكومة يصدر منشورات . . ونحن لسنا حزبا ولا هيئة إنما نحن فقط مجموعة من الأصدقاء نجمعها وحدة الرأي . . فما هي الشخصية التي يمكن أن يبرع عنها منشور يصدره . . هل نعتبر أنفسنا حزبا أو هيئة مطعمة ؟

وقال فتحى إبراهيم :

— لماذا لا نوقع منشوراتنا بكلمة أصدقاء . . إن صداقتنا تشمل أفراد الشعب كله . .

وقال مصطفى وهو جاد كأنه يحمل المسؤولية كاملة :

— إنك تعرف كل الطلبة المسؤولين عن كل الأحزاب وكل الهيئات مع اختلاف كل الاتجاهات . . فلماذا لا نحاول إقناعهم بأن يصدر منشورات نعر عن كل طلبة الجامعة رغم اختلافاتهم وبوقعها بتوقيع يعبر عنا كلنا . .

وقالت نهي كأنها تؤيده وهي تنظر إليه معجبة باقتراحه :

— إننا نريد أن تصدر منشورات نعر عن رأى الشعب لا عن رأى حزب .

وقال محي الدين عبد السلام وكأنه حائر :

— إننى لم أعود على كتابة المنشورات ولا أدري كيف تكتب

وقال فتحى إبراهيم :

— أكتبه أنا . . لقد سبق أن كتبت منشورات . . بل إننى الخاصة التي أحرص على كتابتها كل يوم تعتبر كأنها وراب يومية . .

واطلقت نهي صائحة .

— إني ولدي أنى التحقت بكلية الهندسة إلا أنى معروفة بأنى . . وقد تعودت أن أكتب القصص . . والمنشور القوى الذي نشره "حاس هو المنشور الذي يروي قصة . . قصة العذاب الذي نعاينه" الملام الذي يزحف على نهارنا . . و .

وقاطعها الطالب مرسى كأنه لم يتأثر ببلاغتها وقال :

— المفروض أن نتفق على الموضوع الذي يعرض في كل . . . ثم يكتب كل من يعتقد في نفسه أنه يستطيع الكتابة . . ثم نسمع ونراجع كل ما كتب ونتفق على ما يطبع منه .

وقال محي الدين وكأنه لا يزال حائرا :

— إننى موافق على ما يقوله الأخ مرسى . . ولكن كيف تطبع . . مرات . . وكيف .

وقال الطالب مرضى :

— إن زميلنا لويس ومرى يملك والده مطبعة تجارية صغيرة طبع أن يطبع لنا المنشورات سواء بموافقة والده أو حمية . . واثق في وطنية لويس . . إنه أبعدنا نظرفا .

وقال محي الدين :

— مهما كان فالطبعة تحتاج إلى تكاليف . . إلى مبالغ . .

وانطلق مصطفى قائلا ولهجة أقرب إلى لهجة رجل أعمال يتعامل مع مشروع من مشروعاته :

— إننا نريد أن تزحم البلد بمنشوراتنا .. وتنشر بين كل الناس .. وأن نطبع من كل منشور الآلاف إن لم تكن ملايين النسخ .. وأنا مستعد لتحمل كل التكاليف ..

ومد يده في جيبه وأخرج مبلغ المائة والخمسين جنيها ووضعها على المائدة أمام محي الدين وهو يقول :

— هذا مقدم لبده العمل .. ومستعد أن أقدم أكثر ..

وساد صمت أقرب إلى الوجوم بين أفراد المجتمعين وغيوبهم تبحلق في الأوراق المالية التي وضعت أمام عيونهم كأنهم مذهولون .. وقال محي الدين بعد أن ابتلع ريقه وهو ينظر إلى مصطفى كأنه يلومه ..

— إننا لا يمكن أن تصدر منشورا ينسب الفضل فيه إلى واحد ما فقط .. إننا يجب أن نعمل بمسئولية واحدة مشتركة .. وأرجوك أن تسحب هذه الأوراق المالية وتعيدها إلى جيبك حتى لا نفرينا بها .. وسحاول أن نجتمع تبرعات من أصدقائنا الطلبة .. كل على حسب قدرته .

وابتسم مستطردا ..

— ولا نمانع في أن تكون تبرعاتك هي أضخم التبرعات .

ومدت محي يدها والتقطت الأوراق النقدية من على المائدة ودستها في جيب مصطفى وهو مذهول .. كأنه صدم بصدمة لم تكن تخطر على باله ..

ثم قفزت محي قائلة :

— عن إذنكم .. يجب أن أعود إلى بيتي ..

ومصطفى يودعها بعينه حتى الباب .. وهو رغم أنه لا يزال في ذهوله يتذكر أنها زوجة منظمة لا يمكن أن تهمل موعد عودتها إلى بيتها .. وزوجها ..

واستمرت المناقشات ساعة حول موضوع المنشورات . ومصطفى لم يعد يتكلم وهو يحس كأنه فشل في مشروعه .. لقد كان مشروعا قائما على أن يخص نفسه بمسئولية رأس المال .. ولكن زملاءه يريدونه مشروعا شعبيا يعتمد على قروش الشعب لا على ملايين أبيه .. ورغم ذلك فهو مقتنع بالاستمرار في التحاوب مع زملائه والتضامن معهم . كتجربة انتظار النتيجة . وإلى أين يصل به هذا الطريق الذي يخطو فيه ..

وقام مصطفى منصرفا وأصر فتحي إبراهيم على توصيله ووقف معه أمام السيارة يحتضنها بعينه ويتحسس حذرانا يديه كأنه يغازل فتاة أخذت له . وقال :

— هل يمكن أن أقود لك السيارة حتى بيتك .. لأريحك وأنت لا تزال ملفوف الرأس ..

وقال مصطفى وهو يجلس أمام عجلة القيادة :

— شكرا .. إنني يمكن أن أقود القيادة .. سلام عليكم

وانطلق بالسيارة بينا إبراهيم واقف يتلحش شهوته التي تنور كلما رأت عيناه سيارة يتمناها .. شهوة قيادة السيارات

وقال الابن ولجته أقرب إلى أن تكون ساخرة :

- لقد شملتني الوزير اليوم بفضلته .. فقد تركوني أدخل الكلية رغم أنني لم أكن أحمل معي كارتية الجامعة ..
وقال الأب وكأنه يهدد ابنته :

- لقد طلب مني الوزير أن أحذرك من الاشتراك في أي تجمع للطلبة .. فإن البوليس سيهاجم أي تجمع بمنتهى العنف ..
وقال الابن متظاهرا بالاستسلام حتى يريح أباه :

- حاضر ..

وقالت أمه عفاف وهي تبسم لابنتها كأنها تقبله من بعيد :

- إنني مطمئنة على ابني مصطفى .. فهو أعقل العقلاء ولا يمكن أن يعرض نفسه لأي اعتداء آخر .. ويجب أن أخذك اليوم إلى طبيبنا الخاص ليكشف على رأسك .. من أدراكي بما فعله برأسك الطبيب الآخر ..

وقال مصطفى في استسلام :

- حاضر ..

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي ذهب مصطفى إلى الجامعة متلهفا .. ولم يكن قد حد ما يتلف عليه ولكنه أصبح متلهفا دائما لمجرد الوجود في الجامعة بين زملائه الجدد عليه .. وكان زين الألم قد خف عن رأسه كما كان الطبيب الذي صحبه إليه أمه قد رفع الشاش الملفوف حول رأسه واكتفى بأن لصق ضمادا من جلد « البلاستر » فوق الجرح الذي كان يشق جبينه وكان الطبيب الأول قد ضم الجرح بغرزتين ..
- وكان الأصدقاء مجتمعين في البوفيه ..

وقال محي الدين عبد السلام بمحرد أن رآه كأنه يعيد إداعة خبر حديد :

- لقد أفرج عن معظم الطلبة الذين اعتقلوا في المظاهرة . ولكن بقي منهم خمسة عشر طالبا لا يزالون معتقلين .. ومن بينهم خمسة من طلبة كليتنا .

وقال مصطفى في صوت خافت متردد :

- هل ستقوم بمظاهرة للإفراج عنهم ..

وقال محي الدين في لهجة زعيم مشول :

- لنحفظ بحق التظاهر للمواضيع الوطنية العامة والأخطر .. وإنني أفكر في الالتقاء إلى المنشورات منذ تحدثنا عنها أمس . فليكن

ومرت برهة صمت على جميع المجتمعين كأد كلا منهم يفكر في هذا المشروع الجديد عليهم . . إلى أن انطلقت نهي صائحة :

- إلى موافقة على منشور بالإفراج عن المعتقلين . وحتى لو أفرج عن بقية الطلبة الذين قصص عليهم في المظاهرات هناك من المعتقلين الآخرين الذين قصص عليهم لجهاد وطني عروا عنه في مناسبات أخرى . . وإلى مستعدة أن أكتب هذا المنشور وأعرضه عليكم .

وانطلق فتحی إبراهيم قائلا كانه يتباهى بعبقريته :

— هناك فكرة جديدة للاتجاه إلى المنشورات .. سنكتب منشورا في جملة واحدة .. وهي .. أفرجوا عن المعتقلين .. ونجمع أيضا توقيعات العمار .. توقيعات الألاف .. والملايين .. وكل موقع يسجل اسمه وصفته .. حتى تتأكد الحكومة من صدق كل التوقيعات ..

وقال مصطفى مبهورا :

— إنها فكرة تحقق قوة أضخم من قوة منشور عادي

وقال مرتضى

— إن عددنا لا يكفى لجمع ملايين أو آلاف التوقعات .

وقال فتحي إبراهيم بانطلاقه

— إننا نستطيع أن نوزع الورقة التي تحمل الحملة الواحدة بعد صاعتها على كل ممثلي التجمعات الطلابية . . سواء التجمعات الإسلامية أو التجمعات الماركسية أو التجمعات الماسونية أو ويقوم كل منهم بجمع التوقعات ثم نجمع كل أوراقنا ونقدمها بـ واحدة . أو نجعلها في زكائب نلقى بها أمام نائب رئيس الحكومة . إننا بذلك نكون أيضا قد حققنا وحدة حركة الصلاة

وقال يحيى اللدبي كأنه بهم أن يلقي خطاب

- إني أحس في صديقتنا فتحي روحه الوطنية التي تدفعها
إلى أفكار جديدة - كماه مخترع .. إنه أديسون الحركة الوطنية
لكن هذه الفكرة تتطلب مبالغ هائلة . على الأقل ثمن الورق الذي
سطع عليه الجملة الواحدة وتجمع عليها التوقيعات . وصديق
ويس الذي يملك أنه مطبعة قد يستطيع أن يتحاييل على أبيه ويطلع
عشرات من أوراق المنشور، ولكنه لن يصل نتائجه إلى طبع الآلاف
حقن أحلامنا الوطنية

وہاں ہر سہی فصاحت کا

لقد تحايلت على أمي هذا الصباح واستطعت أن أحذ منها
 بها .. اتسرع به . لا لا لا أسرع ولكني أضع
 استطعته حتى نصدر المشروع

ثم أخرج الجنيه من جيبه ووضعته أمام محبي الدين

وقال مرتضى وهو يصحك هو الآخر

- أنا أشطر من مرسى لقد أخذت من أمى حصة حبيبات
محبة شراء كتاب جديد

وأخرج الجنيهاً الخمسة من حية

وقالت هى وهى تطاطىء رأسها كأنها خجلة :

- أنا . ولا ملهم . يدوبك مصاريك البيت .

وقال عيسى الدين كأنه يسحر من نفسه :

- أما لى أستطيع أن أساهم بأكثر من عشرة جنيهاً حتى
لومعت مدلتى الثانية

وقاطعه مصطفى فى حدة وهو يخرج من جيبه المائة والخمسين
حيها التى لا يرال محمطاً بها

- إنى أستطيع أن أدفع كل تكاليف المشروع وهذا المبلغ يعتبر
للمقدم ..

وتبادل الزملاء النظرات بين بعضهم البعض . . كأنهم
يتهايمسون إن مصطفى لا يريد أن ينسى أو يتجرد من شخصية
اس المليونير . .

وصاح فيهم مصطفى كأنه غاصب :

- إذا كنتم تصرون على أن تقوم الحركة الوطنية على المساواة فى
دفع مصاريك ما محتاج إليه كما قسم لى بالأمس . فاعتبروا
ما أدفعه كأنه سلفة للحركة الوطنية تردونها إلى عندما يتوفر للحركة
ما تردده إلى

وقال عيسى الدين عند السلام فى صوت متلعثم كأنه يقدم
سلامه لرأى آخر غير الرأى الذى أعلنه أمس

- من المفروض أن كل قرش فى مصر هو منك للحركة
وطنية . . والأغنياء الذين يملكون مزيداً من القروش هم أقرب إلى
. . كل منهم كأنه يكتم فيه الشعب كله . .
نحب أن يسحب من البنك ما نتطلبه أى حركة شعبية . . إنى أن
حرك بكاً لتغطية ما تفرضه حركتنا الوطنية من تكاليف
وقال مصطفى فى عصب :

- أنا لا يمكن أن أكون سكر . وإلا كنت بنكاً مفلساً . إنى
حسبياً لا أملك ولا ملهم .

وقال فتحى مبتسماً ابتساماً كأنها مسمومة بالغبرة

- إنك تستطيع أن تباع سيارتك لو عجزت عن أن تأخذ من
لديك ما تريد . . أو على الأصح ما تحتاج إليه الحركة الوطنية . .
سيارة تساوى الآلاف . . وطبعاً . . سيفتق والدك عليك من أن
سير على قدميك ويشتري لك سيارة أخرى جديدة . . وعندما تشتري
هذه السيارة الأخرى الجديدة استشرى فىنى خير فى السيارات .

ونظر مصطفى إلى فتحى ساخطاً وهو يزفر أنفاسه كأنه يحس شغل
فى صدره وقال :

- سبق أن رحوتك ألا تأتى على ذكر والدى فى أى كلام بين

وقال فتحى فى لجة حامية ودوده كأنه يؤكد صدقه

- آسف . إنى لا أتعهد أى كلام . ولكننا أصبحنا إخوة
فى أنى أتصور والدك كأنه والدى . . وأندنا كلنا

وقال محيى الدين عيد السلام كأنه يعتمد أن يأخذهم بعيدا عن
هذا الكلام :

— لقد بدأنا فعلا فى تلقى التدرعات وأصبحنا فى حاجة إلى أمين
صندوق . . من يكون منا آمينا للصندوق . . أنا شخصيا لا يمكن
أن أكون .

وقال فتحى إبراهيم :

— طمعا مصطفى هو أمين الصندوق . . لقد دفع منذ الآن أكثر
مبلغ . .

وهلل الباقون موافقين . . وقال مصطفى بعد أن صمت فترة :

— لا مانع . . مستعد أن أكون آمين للصندوق الحركة . .

وقال محيى الدين وهو يجمع الجنيهات التى أعطيت له ويتناولها
لمصطفى قائلا وهو يصحط

— هذا أول مبلغ يدخل الخزينة .

وقال فتحى مبسما

— سأضيف غدا خمسة عشر جنيها . . وربنا يوفقى . . ربنا

سر

وقال مصطفى وهو يأخذ الجنيهات من محيى الدين :

— يجب أن نسجل التفاصيل فى دفتر نحفظ به سرا بيننا

ثم نزع ورقة بيضاء من كتاب يحمله وبدأ يكتب بقلمه . . جنيهه
واحد من مرسى . . عشرة جنيهات من مرتضى . . مائة وحسين

وما من مصطفى الدسوقى . . وقفزت منى واقفة قائلة وابتسامة
" حة بما انتهوا إليه تلمع بين شفتيها :

— عن إذلكم . . سأذهب إلى المحاضرة .

نظر مصطفى إليها كأنها فاجأته بشيء كان قد غاب عن باله .

في الجامعة . . والجامعة تدور فيها محاضرات دراسية . . وأنى
التي يكتبها ثم نزعها من الكتاب وسلمها إلى محيى الدين

٢٨

— إنى لم أوقعها . . ولكنها بخط يدى . . وعن إذلكم . . إن

أنا الآخر محاضرة

قال محيى الدين وهو يصع الورقة فى جيبه دون أن ينظر إليها

٢٩ فرح . . كأنها فرحة الانتصار :

— سأجرى أنا وراء تنفيذ ما اتفقنا عليه .

بعض اجتماع الشلة

ب مصطفى يحس كأنه يتحدى منى . . إذا كانت جادة فهو جاد

مها . . وإذا كانت قد التحقت بجامعة لحاجتها إلى شهادة عالية

٣٠ فى حاجة أكثر . . وإذا كانت تواظب على حضور الدروس

محاضرات حتى تنجح فى الامتحان . . فهو يواظب هو الآخر

حج ويحصل على البكالوريوس ويصبح مهندسا محترما كأنه

ت يؤكد لها أن ليس هناك فرق بين الغنى والغلبان . . كلاهما

٣١ من الحياة نحو هدف واحد . . ولكنه يعترف بأن كل هذه

٣٢ سبب جديدة عليه . . لقد كان يعيش من قبل وهو لا يحس

..لتحدى إلا بين شباب طبقة أولاد الأغنياء .. ويتحداهم في التمرق
عليهم بالمغامرات اللاهية العاتية التي يملأون بها حياة كلها فراغ .
إلى أن انضم إلى شلة أولاد العصابة .. وانتقل إلى حياة أخرى ..
حده من فيه وقت فراغ .. ولا يتحدثون فيه بعضهم بعضا ولكن
كهم يتحدثون الفقر .. وكانت هي هي أقوى من ارتبط بهم ..
ولا يدرى ما رسله بها .. لا يدرى ماذا يريد منها .. إنه مجرد
إحساس بها

وانتهى مصصفي من حصور لمحصرات وخرج إلى الله منهوفا
إلى لقاء نهي .. إلى أن التقى بها تسعى إليه كما يسعى إليها ..
وقالت ضاحكة وخطواتها مع خطواته :

— أهلا سيادة أمين صندوق الحركة الوطنية ..

وقال دون أن يتحارب مع ضحكاتها :

— إنني إلى الآن لا أدري ما هي مسؤوليتي .. وما هي مهمة
أمين الصندوق ؟

وقالت خلال ابتسامتها الواسعة .

— مهمته أن يدفع

وقال وهو يفر أنفاس الضيق .

— كنت مستعدا أن أدمع دون أن أحمل هذا اللقب وهذه
المسئولية

وقالت وقد عادت ضاحكة ضحكاتها التي تتمايل معها :

يريد أن نطمئن إلى تحميلك مسئولية الدفع .. أصبحت بيننا
.. راحب مصعب رسمي ..

وكانا قد خرجا بمسيرتهما من باب الكلية . ولم يتجه بها إلى
.. فف الأتوبيس كما كانت العادة .. بل سار وبلا تعمد نحو
نه ثم وقف حانها وهو يطر إليها كأن من المفروض أن تركب
معه .. وقد سبق أن ركبت سيارته فلم يعد هناك ما يدفعه إلى تعمد
.. عونها إلى الركوب .

وقالت هي منسمة ابتسامتها الواسعة وإن كانت لمحتها لا تخلو
من تودد

— لقد سبق أن ركبت معك السيارة وأنت مضروب .. وأرى أن
ب معك اليوم أبط حتى لا تصطر أن تصرب نفسك مرة أخرى
تتقنى بالركوب .

وهو يطر إليها وهي نحاسه في السيارة ولا يدرى لماذا هو سعيد
بها إلى هذا الحد .. لا يدرى ماذا يريد منها .. إنها ليست جميلة ..
ب بدو أمامه ككور الدرة المشوى الذي لا يجذب حماله ولكنه يثير
شهيتك للأكل .. إنها تثير شهيتة للراحة والشبع وهي بجانبه .

ومرت بها برهة صمت كأن كلا منهما يحاول أن يعود نفسه على
صع حديد أصح يجمعهما .. وضعهما مفردين بعيدا عن عبور
نصبة وهي نحاسه في سيارته الخاصة .. إلى أن قال مصطفى ووجه
حاددة دون أن يتنسم وكأنه بدأ التحقيق :

— لقد قلت لي أنك متروجة .. منذ متى ؟

وقالت نهي ضاحكة :

— منذ ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما ..

وقال مصطفى جادا كأنه يرفض أن يشاركها ضحكاتها :

— وقد أصبحت أما ..

وقالت نهى بسرعة كأنها تدافع عن نفسها

— لا .. لست أما .. لا صبيان ولا بنات .. الوقت لم يحن

بعد

وقال مصطفى في دهشة

— أى وقت تنظريه ؟

وقالت نهى وكأن ابتسامتها ضاعت وسط أحلامها :

— الوقت الذى يصل بالعائلة إلى تحقيق دخل معقول ثابت

كفى لأن أوفر لأسائى نشئة مريحة .. إن روحى عرور من صعد

لموطين .. أى من الطقة التى يسموها طقة محدودى الدخل

وهو لا يحمل شهادة جامعية حتى يطلب برفع مرتبه ولكنه

يحاول ويكسب من جهد بدله خارج الحكومة ولكنه لا يزال

يكسب القليل .. وقد فكرت أنا أن أعمل وأكسب .. حتى أوفر

دخلا للعائلة يصم لي تربية أولادى إذا أنحتهم .. وفكرت يوما في

أن أعمل نائفة في أحد الوثيكات النسائية .. كي فكرت في أن أنزع

لأعياى التريكو فأنا موهوبة بنى التريكو .. واستطيع أن أكسب

بترشح يدي .. ولكى قررت أن أصبر قليلا إلى أن أسأل شهادة

الهندسة .. شهادة صعبة ولكنها توفر دخلا أكثر ..

وقال مصطفى كأنه يقاوم مرارته :

— إنك لا تعتمدين على الله .. لذلك ترفضين وتقاومين أن

تكونى أما ..

وقالت نهى بسرعة :

— إن كل اعتيادى على الله .. ولعلك لا تعلم أنى متدينة

حريصة على أداء كل الفروض .. بل إني مدكت صغيرة وأنا أغنى

من الله أن يوفر لي السبل التى أستطيعه لأؤدى فريضة الحج

.. كفى الاعتماد على الله هو الاعتماد على العقل لدى وصعه الله في

سك .. والعقل يقول لي ألا أصح أب إلا بعد أن أوفر ما يكفى

نسيه أولادى للحياة التى أردها هم .. وروحي عرور ليس

متحمس في إيجاب أولاد .. ربما كان الارتباط ببي وبه لا يمنع

شهيقنا للإنجاب ..

وقال مصطفى كأنه يريد أن يثير نهى :

— إن الحب بين الزوج والزوجة يفرض عليهما الإنجاب .. كأن

كلا منهما يعيد خلق نفسه من الآخر ..

وقالت نهى ضاحكة :

— إنى لم أتزوج عن قصة حب كالتى تفرؤها في الروايات ..

وقد قلت لك أن أمي روحى وأنا صغيرة حوى على من الوا .. وإن

استسلمت للزواج لأنه المصير المكتوب .. وربما كان عزوز

قد تزوجى بخرد أن أهله فرصوا عنه سكب كل حبه الطيعيه دون

أن يعجز عن استكمالها .. ليس بينى وبين زوجى قصة حب

ولكن بيننا تقاهم وقوة احتمال أحدهما للآخر .. وكل منا منفرد بمكره

وأماله وطريقه . . بدليل أننى دخلت الجامعة بينما هو لا يفكر فى الجامعة . . بل يستهن بها ويحتقرها بينه وبين نفسه . .

وقال مصطفى وهو يفتعل ضحكة يدارى بها ما يقصده :

— لو كنا قد تزوجنا . . أنت وأنا . . منذ ثلاث سنوات . .
لكان لدينا الآن ثلاثة أبناء . . وكنت أتمنى أن يكونوا ستة . . فإنى أجب التوالم . .

وقاطعته نهى ضاحكة :

— لو كنت قد تزوجت من أمثالك لكانت فضيحة . . ولا هممت بين الناس بأنى اصطدتك لأعيش بملايين أليك . . ولكنك قد رفضت أن أنجب منك أنت الآخر لأنى لا أريد أن ينشأ أولادى وهم يعيشون بإحساس أن لا فضل عليهم إلا ملايين أو ملايين أليك . . وأن أهمهم ليست سوى الوعاء الذى طبخوا فيه إلى أن خرجوا إلى الحياة كرجة شهية من وجبات الأغنياء . . لا . . أريد لأبنائى أن يعيشوا وهم فخورون متباهون بأهمهم كما هم فخورون متباهون بأبيهم . . ثم ما هى حياتك وما هى حياتى حتى نجتمعنا فى حياة واحدة . . كيف تعيش وكيف أعيش . . إن الحياة ليست مجرد عواطف . . إنها طريق . . وكل منا يسير طريقا آخر . . وحتى لو افترضنا الحب فإنى لا أستسلم لمواطفى ولكنى أستسلم لعقل حتى أحتفظ بشخصيتى . .

وقبل أن يرد عليها مصطفى كان قد وصل بالسيارة إلى ميدان الجزيرة وصاحت نهى :

— قف . . سأتركك هنا . . فلو دخلت بسيارتك فى الحوارى فكأننا نعلن الفضيحة . .

ووقف بالسيارة ونزلت نهى قائلة من خلال ابتسامة واسعة :

— مع السلامة يا سيادة أمين الصندوق . . أراك غدا . .

ومصطفى يتبعها بعينيه وهى تبتعد عنه وكأنه مذهبول بها سمعه منها . . ثم بدأ يقود السيارة وهو واقع تحت إحساس بالسخط . . السخط على نفسه وعلى حاله . . إن أباه يلاحقه ولا يستطيع أن يتخلص من الانشباب إليه حتى وهو يتبادل الكلام مع فتاة يرتاح إليها ويريد أن يفصل بها بشخصيته الخاصة . . شخصية مجردة عن أبيه . . لعله لو أراد الزواج يوما فلن يتزوج إلا باسم أبيه لا باسمه . . وبقيمة أبيه لا بقيمته . . وربما كان أبوه هو وحده الذى يحق له أن يختار له العروسة . . كيف يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه ويستقل بشخصيته . . ربما من المفروض عليه أن يتنظر حتى يموت أبوه ويرحمه من الاستيلاء عليه . . ولكن لماذا لا يفصل عن أبيه من الآن . . يخرج إلى طريق يسير فيه وحده . . ويعمل معتمدا على نفسه ليغطي نفقات معيشته . . وكثيرون من أبناء المليونيرات فى أمريكا يستقلون عن آبائهم ويبدأون القيام بأعمال خاصة حتى لو بدأ الواحد كبائع صحف . . بل إن كثيرين من شباب أمريكا يتزوجون وهم لا يزالون طلبة وهم يعملون لكسب عيشهم . . إنه يستطيع أن يفصل عن أبيه ويستقل عن حياته ويبدأ فى كسب رزقه حتى لو بدأ كسائق تاكسى كما يحاول زميله فنحى إبراهيم . .

ويبدأت أحاسيسه بالسخط تخور . . ووجد نفسه يستسلم فى ضعف . . إنه لا يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه . . إنه ليس له قيمة إلا أنه ابن المليونير رضوان الدسوقى . . سواء احتاج لهذه القيمة وهو يقضى سهرة فى صالة من صالات الليل حتى يستقبل

والترحاب الزائد وتتجمع حوله الجرسونات والنساء المحترفات ..
أم وهو يشترك في اجتماعات الحركة الوطنية بين طلبة الجامعة .. إنهم
هم أيضا يحضرون تقديرهم له في أنه ابن مليونير .. وربما وضعوه
بهم أمينا للصندوق لا تقديرا لقدراته وكفاءته ووطنيته بل تقديرا
للملايين أبيه ..

والاستسلام يقلبه .. ويكاد ينهر نفسه لهذا السخط الذي يطرا
عليه .. لماذا لا يعتز ويفخر ويتباهى بأنه ابن المليونير رضوان
الدسوقي ..

ونشاط طلبة الرفية من الأصدقاء يتسع ويحقق نتائج إيجابية ..
لقد استطاع محيى الدين عبد السلام أن يقنع لويس بطبع المنشور في
مطابع أبيه .. ولكنه في حاجة إلى ثمن الورق الذي سيطبع عليه
المنشور .. وقد استطاعوا أن يجمعوا تبرعات بلغت سبعمائة جنيه ..
وكانت نوى أنشط الجميع في جمع التبرعات .. لقد جمعت وحدها
ثلاثين جنيها .. ومصطفى حريص على أن يسجل كل قرش يضعونه
بين يديه .. ويضع أوراق الحساب بين يدي محيى الدين عبد
السلام .. وهو في نفس الوقت يغطي باقي ما يحتاج إليه شراء
الورق .. وقد أخذ من أمه مائتي جنيه .. وجمع من البيت عدة
أجهزة راديو وتلفزيون وفيديو كان يعطيها لفتحي إبراهيم ليبيعها
ويضم ثمنها إلى رصيد الحركة ..
ولم يفرج عن الطلبة ..

وصدر المنشور الذي يسجل جملة واحدة .. « افرجوا عن
المعتقلين » .. فرق ورقة بيضاء طويلة تجمع عليها توقيعات كل

الطلبة وكل العمال وكل من يقبل التوقيع مع ذكر صفته .. ووزعت
هذه الأوراق على أفراد الشلة .. كما وزعت على قيادات كل أحزاب
وتجمعات الطلبة والعمال حتى تكون حركة وطنية واحدة تقوم بجميع
التوقيعات ..

ونهى حلت ألف فرخ من أوراق المنشور لتوزيعها بين صديقاتها
وزميلاتها الطالبات حتى تشركن في جمع التوقيعات .. ومصطفى
لم يحمل أكثر من عشرة أفرخ بدأ يجمع عليها بنفسه التوقيعات ..
وقد بدأ يجمع توقيعات الطلبة الذين يعرفهم من يوم أن التحق
بالجامعة ومعظمهم يشتركون في أنهم من أولاد الأغنياء .. ثم حل
الأوراق إلى النادى يحاول أن يجمع التوقيعات من أفراد .. ولكن
كلهم يرفضون التوقيع ومنهم أفراد يصرخون في وجهه :

— ما دخلك في توزيع هذه المنشورات .. أتدري ما الذى
يريدونه .. إنهم يريدون خراب بيوتنا والعودة بنا إلى أيام عبد
الناصر .. أيام الفقر .. يستولون على مالنا ويصبحون هم وحدهم
الأغنياء ..

ورغم ذلك استطاع أن يجمع عددا قليلا من التوقيعات .. وإن
كان بعضها كأنها توقيعات هزلية لا تعدى الشبهة أو كاذبة لا تحمل
الاسم الصحيح ولا الصفة الحقيقية .. حتى أن أحدهم بعد أن
سجل توقيعا مزيفا كتب صفته بأنه رئيس وزراء المستقبل ..

وقد غامر مصطفى كأنه يحاول أن يفرض نفسه على الحركة
الوطنية .. وبدأ يطوف بالطلبة المعادين الذين لا يعرفهم .. الطلبة
الغلابة .. ولكن معظمهم يعرفونه .. إنه ابن المليونير رضوان
الدسوقي .. وكان كل منهم يتلقى عرضه في دهشة .. ما الذى

أدخله في الحركة الوطنية .. وبعضهم يوقع كمجاملة له .. وبعضهم يعتذر بأنه سبق أن وقع لدى طالب آخر .. وبعضهم يتلقاه في حقد ويحاول أن يجادله فيهرب مصطفى من أمامه .

وكان أفراد شلة الأصدقاء يجتمعون في المساء في شقة فتحي إبراهيم .. ويراجعون التوقيعات التي جمعوها .. لقد جمعوا في يوم واحد مئات التوقيعات .. وغدا سيصلون إلى الآلاف .. وقد جمعوا الآلاف فعلا في الغد .. حتى أن أفراد الشلة وهم مجتمعون في المساء بدأوا يعد أن راجعوا ما تسلموه من منشورات موقعه يناقشون إصدار منشور آخر .. إن نجاحهم في توزيع المنشور الأول يدفع إلى إصدار منشور آخر فوراً .

وقال عمى الدين عبد السلام :

— أي موضوع نختاره للمنشور الجديد ؟

وقال مرسى في حدة :

— إن كل حالة البلد مرتبطة بعلاقتنا بأمريكا .. فليكن منشورا يدعو إلى التحرر من أمريكا ..

وقال مرتضى :

— إن ارتباطنا بأمريكا يعني ارتباطنا بإسرائيل .. فليكن المنشور ضد كامب دافيد وضد ما يسمى العلاقات الطبيعية مع إسرائيل .. إننا لا نقبل أن نكون على علاقات طبيعية مع إسرائيل وهي تعتدى على كل الأرض العربية .. فأرضنا عربية ..

وقال فتحي إبراهيم في هدوء كأنه يعرض عبقريته :

— لنبدأ من البداية .. أي من حالتنا الداخلية .. وقد قرأت لأحد الكتاب الذين نثق فيهم مقالا أخيرا يقول فيه .. إن مصر شعب غنى ودولة فقيرة .. ولنفرض أن هذا صحيح .. ولكن لماذا يكون الشعب غنيا والدولة فقيرة .. لأن الغنى لا تحكمه قوانين .. ولا تسيطر عليه دولة واعية تفرض الوسائل النظيفة الشريفة في الحصول عليه .. ثم توزعه بحيث يضمن سلامة كل الشعب .. إننا لا نعيش أي نظم تربط الدولة بالشعب رباطاً صادقا نظيفاً تستطيع به أن تكون دولة غنية بشعب غنى .. فلنصدر منشوراً يطالب بارتباط الدولة بالشعب .. والشعب بالدولة .. ولنذهب إلى هذا الكاتب ونناقشه حتى يوحى إلينا بما نكتبه في المنشور ..

والمناشات لا تنتهى .. والليل يزحف .. ومصطفى يستمع ويحاول أن يقيس كل ما يسمعه بما يفهمه عن حالة أبيه .. وعما سبق وسمعه من أبيه ..

★ ★ ★

وكانت الساعة قد تعدت الثانية صباحاً عندما دق التليفون في بيت رضوان الدسوقي .. وقام المليونير من النوم مغزوعاً ورفع الساعة وسمع صوتاً متعجلاً يقول :

— قبض البوليس على مصطفى الدسوقي .. واعتقل في سجن القلعة ..

واختفى الصوت من التليفون .. وأعاد الأب ساعة التليفون وهو يتلفت إلى زوجته ليطمئن إلى أنها لم تسمع شيئاً .. حتى لا تفرع بها جرى لابنها .. وكانت زوجته نائمة .. وهو لم ينم في انتظار الصباح ..

الفصل السابع

لم يحاول الأب أن ينام بعد أن سمع خبر اعتقال ابنه . . وخواطره
تعصف داخل فكره . . من الذى أبلغه الخبر بهذه الكلمات السريعة
التي حملها إليه التليفون . . لابد أنه أحد الطلبة . . لو كان الذى
اتصل به هو أحد المسؤولين لأفاض في الحديث عن أسباب الاعتقال
وعبر عن أسفه لاضطرارهم لاعتقال ابنه معتذرا له . . ولكن . . لعل
المسؤولين لم يعلموا بعد أن ابنه كان من بين من اعتقلوهم . . وليتأمل
حتى الصباح حتى يتلقى الخبر رسميا . . ولكن . . قد تمر أيام قبل
أن يكتشفوا أنهم اعتقلوا ابنه . . فإذا يفعل . . ولكن . . لماذا يفعل
أى شيء . . لماذا لا يترك ابنه يتحمل مسؤولية نفسه كما كان هو
يتحمل مسؤولية نفسه منذ كان صبيا . . لقد تحمل مسؤولية انتحال
نفسه من الفقر حتى وصل إلى منتهى الفنى . . وربما اختار ابنه أن
يتشبه نفسه من الفنى حتى ينهار إلى منتهى الفقر . . إن تعريض
نفسه للحركات السياسية الطلابية الفوغائية هو أقصر طريق ينتهى به
إلى الفشل . . والإفلاس . . والفقر . . حتى لو تركه يرث عنه
ملايينه فيضيعها على هذه الحركات . . مقنعا نفسه بأن يفلس في
مسبيل الوطن . . ورغم ذلك فلماذا لا يتركه حرا . . لقد وصل ابنه إلى
السن الذى يحتاج فيه إلى الحرية حتى يستكمل شخصيته . . لماذا
لا يتركه معتقلا داخل السجن حتى يجتاز تجربة من تجارب الحياة تجعله
يجتاز بعدها طريقه . .

وزفر الأب أنفاسه التى تنقل على قلبه حتى تكاد تسكته .. إنه لا يستطيع أن يترك ابنه سجيناً .. لا يستطيع أن يترك ابنه داخل السجن .. وهو واثق أنه يستطيع أن يفرج عنه باتصاله بالمسؤولين .. وهو قد تعود أن يتعالى على هؤلاء المسؤولين ولا يطلب منهم شيئاً خاصاً ويرتفعهم هم الذين يطلبون .. ولكن ابنه بدأ يذله أمامهم .. إنه هو الذى سيطلب هذه المرة إسباغ فضلهم عليه .. وحتى لو عجز عن الإفراج عنه فهو مضطر أن يرعاه وهو داخل السجن .. على الأقل ليطمئن على معاملته وكيف يعيش فى الزنزانة .. وهل ينام على الأرض المسفلنة أم أنعموا عليه بسرير ينام عليه .. وماذا يأكل .. يجب أن يكون للعائلة حق تزويده بها يأكله .. واستيقظت زوجته عفاً وهى لا تعرف شيئاً .. وهبت فوراً كعادتها وهى تردد كلمة صباح الخير دون أن تنظر فى وجهه وخرجت من الغرفة لتطمئن على ابنها مصطفى فى غرفته ..

وعادت إليه مبهورة كأنها تلهث وقالت كأنها تنن :

١- مصطفى ليس فى البيت ..

وقال متنبهاً فى أسى :

٢- اطمئن .. إني أعرف أين هو ..

وصاحت كأنها تصرخ :

٣- أين ؟

وقال الأب وهو يكظم أسنانه كأنه يخشى أن تقع وتسقط ويبتلعها :

٤- معتقل .. فى السجن ..

وصرخت الأم :

— فى السجن .. لقد سبق أن ضربوه .. وهم اليوم يلحقون به فى السجن .. إنهم يقصدونه .. بل إنهم يقصدونك أنت .. يستخفون بك .. ولا يحسبون لك أى حساب .. كيف يقبضون على ابن رضوان الدسوقي .. إلا إذا كان رضوان الدسوقي لم يعد يساوى شيئاً ..

وانهارت فوق السرير تبكى ودموعها تسبح بين عينيها ..

وقال الأب دون أن يحاول تخفيف دموعها :

— إن من يستخف بى ولا يحسب لى أى حساب هو ابنى مصطفى نفسه .. وقد سبق أن ناقشته وحاولت إقناعه بالاعتماد عن الحركات التى يثيرها الطلبة وحذرتى بما أبلغنى به وزير الداخلية من أن الوزارة ستزداد عنفاً .. ولكنه لا شك قد استهان بالوزير واستهان بى .. استهان بأبيه .. واستمر مع الغوغائية المنطلقة فى الجامعة ..

وصاحت الأم ساخطة :

— ليس معروفاً عن مصطفى أن له دخلاً فى السياسة .. كل ما هو معروف عنه أنه ابنك ..

وقال الأب كأنه يحدث نفسه :

— إن البوليس يتلقى أوامراً فى مواجهة الأحداث دون تفريق بين الأبناء ..

وقالت الأم وهى تمسح دموعها بكم قميص النوم :

— إنى مضطرة أن أعود إلى الاتصال بكوثر زوجة وزير

الداخلية .. لقد أصبح أكرهها .. أحس كأنها تشمت في وأنا
مذلول لها .. ولكن .. من أجل مصطفى يجب أن أحادثها ..

وصاح رضوان الدسوقي في عنف :

— لا .. لا تتصل بها ولا بأى أحد .. فاهمه .. لا تتصل
بها .. وسأصرف أنا ..

وقام من جانبها ودخل الحمام ثم ارتدى ملابسه وطلب فنجان
قهوة وضعه أمامه وهو يرفع سحابة التليفون .. وحادث رئيس
الوزراء .. إنه يريد أن يلقاه حالا .. الآن .. قبل أن يذهب إلى
مكتبه في الوزارة .. ورئيس الوزراء لا يستطيع أن يرفض له أى طلب
لقاء وفى أى موعد .. إنه ليس مجرد صديق .. إن بينهما معاملات
واسعة .

ووضع رضوان سحابة التليفون .. وشرب فنجان القهوة .. ثم
قام خارجا دون أن يحس زوجته .. ثم عاد قبل أن يخرج من الباب
والتفت إليها قائلا :

— قلت لك ألا تتصل بأحد .. اعتبرى الخبر كأنه
سر عائلى ..

وركب سيارته إلى بيت رئيس الوزراء .. وهو يجمع أفكاره في كل
كلمة يعدها ليقولها له .. وصورة ابنه وهو داخل السجن لا تفارق
خياله .. وتعمكر أفكاره ..

واستقبله رئيس الوزراء في ترحاب كبير من خلال ابتسامة واسعة
وبدأه قائلا بعد تحية صباح الخير :

— لقد وصلنى الخبر الآن فقط .. وأنا سألت الداخلية بعد أن
حدثنى في التليفون .. أى لم يكن أحد قد أبلغنى بالخبر ..

وقال رضوان الدسوقي في مراة :

— أى أنهم اعتقلوه وهم يعرفونه ويعرفون أنه ابنى ..

وقال رئيس الوزراء من خلال ابتسامته الواسعة :

— لا تدهش .. فإن كثيرا من أبناء أقرب أصدقائنا يشتركون في
أعمال القوضى التى يقوم بها الطلبة .. ويتعرضون لما يتعرض له
الطلبة الباقون مما يتخذ البوليس حيالهم .. كلهم أبناء متعبون ..
وأقول لك بصراحة أن ابنى أنا نفسى يتعبنى .. ويثير أعصابى ..
إنه يعتبر نفسه مسلما وأنا كافر .. وقد انضم إلى إحدى الجماعات
الاسلامية التى تدعى الثورة .. وأطلق ذهنه .. وأصبح يبالغ في أداء
الفروض الدينية .. حتى أنه أصبح وهو جالس معنا على المائدة
يتعمد أن يأكل بأصابعه .. لأن الإسلام لم ينص على استعمال الشوكة
والسكين في تناول الطعام .. وهو طبعا معارض ورافض لكل
ما تقرره وتتخذ الحكومة .. حكومتى .. حكومة أبيه .. وهو
لا يناقشنى .. ربما احتراما لأبيه .. وربما ياسا من أبيه .. ولكنى
أحس بمعارضته من خلال نظراته التى يوجهنى بها .. كأنه ثائر على
أوكأنه يحتملنى .. إن هذا الجيل لا يمكن أن يقدر ما نتحملة وما نبذله
لصيانة البلد وحماية كيانه ..

وقال رضوان مقاطعا :

— ولكن .. هل تتحمل أن يعتدى البوليس على ابنك بالضرب
أو يقبضوا عليه ويلقوا به في السجن ..

وقال رئيس الوزراء في كمد :

— الذى يحميه من البوليس أنهم وضعوا وراءه خبيرا سرا حتى يحميه من الاعتداء عليه .. وأنا وابنى وكل أفراد العائلة نعيش كما تعلم ونحن مهددون بالاعتداء على أى فرد منا .. ورغم ذلك فأنى أفكر أحيانا فى أن أطلب من البوليس التفاوضى عن حمايته والقبض عليه ووضعه فى السجن .. لعله يفيق من نزوته ويتعد عن هذه الجبايات التى تضلله

وقال رضوان فى سخط :

— إن السجن لا يفيق الشبان .. بالعكس .. إن من يدخل منهم السجن يخرج وهو أبعد تطرفا ويتأدى بالمجازفة بنفسه داخل الحركات التى يعتبرها حركات وطنية .. كأنه يريد أن يعود إلى السجن من جديد .. إن السجن بالنسبة للطلبة ليس عقوبة ولا يحس به كتهديد لمستقبله .. ولكن السجن بالنسبة لهم بصولة .. وكأنه منح وساما يتباهى به بين الطلبة .. لقد عرفت ذلك منذ كنت أنا نفسى لا أزال طالبا ..

وقال رئيس الوزراء كأنه يهتف بشعار حكومى :

— ليكونوا أبطالا بين بعضهم البعض .. ولكننا لا يمكن أن نسمح لهم بأن يكونوا أبطالا علينا ..

وقال الأب فى رجاء أقرب إلى التوسل :

— إنى لا أحس بأن ابنى وحده هو المسجون .. فأنا نفسى أحس بأنى وضعت فى السجن .. وحتى لو تحملت هذا السجن فكيف أتحمّل حالة أمه التى لم تكف عن البكاء والصراخ منذ قبض

على ابنها .. وهى تعتبرنى المسئول عنه وتكاد تختنقنى بدموعها .. أرجوك .. أفرجوا عن مصطفى .. حتى لو حملتمونى مسئولية تصرفاته ..

ولانت ابتسامة رئيس الوزراء كأنها أصبحت ابتسامة إشفاق وقال :

— انتظر .. دقيقة واحدة ..

ثم رفع ساحة تليفون موضوعه جانبا كأنها غيابة وسمعه رضوان يقول :

— صباح الخير مرة أخرى يا أفندم ..

واعتدل رضوان فى جلسته فورا .. وبرق وجهه بملامح احترام شديد .. ورئيس الوزراء يردد هامسا فى التليفون .. حاضرا يا أفندم .. مضبوط يا أفندم .. صبح يا أفندم .. ممكن يا أفندم .. ثم أعاد وضع ساحة التليفون والتفت إلى رضوان الدسوقى قائلا :

— اسمع يا سيد رضوان .. إن ابنك لم يظلم بالقبض عليه .. لقد كان يشترك فعلا فى إثارة الفوضى وتوزيع المنشورات .. ورغم ذلك فمصدر أوامرى بالإفراج عنه فورا .. ثقة فبك أنت وبجاملة لك .. وبالمناسبة .. لقد ذكرتنى بعملية استيراد اللحوم التى سبق أن عرضتها علينا .. لم يتم منها شيء حتى اليوم .. ويجب أن تتم هذا الأسبوع .. (واستطرد وهو يضحك ضحكة مفتعلة) .. حتى لا نفقد ثقتنا فبك وقد نبدأ التفكير فى القبض عليك أنت ..

وقال رضوان الدسوقى من خلال ابتسامة مفتعلة :

— شكرا يا ريس .. واعتبر أن صفقة اللحوم قد تمت ..

وخرج من بيت رئيس الوزراء بعد أن كرر شكره .. وفهب إلى مكتبه ودخله وهو يبخلق في عيني كل موظف لديه كأنه يريد أن يضبط من وصله معهم خبر اعتقال ابنه ..

★ ★ ★

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر .. والأب لم يجلس لتناول غذائه ولا الأم .. إنهما مصران على أن يتناول ابنيهما الغذاء معها كما تعودا .. وخوف يجتاحهما من ألا يحقق رئيس الوزراء وعده بالإفراج عنه اليوم ..

وظهر أمامهما مصطفى بوجه متجهم يكسوه السخط على عكس ماكانا ينتظرانه من رؤية وجهه فرحا بالإفراج عنه .. واندفعت الأم تحتضن ابنها وتقبله وهي تصيح .. الحمد لله على السلامة .. ألف سلامة .. بينما ظل أبوه جالسا في مكانه متجهما بمظهر الزعيم المسئول عن العائلة .. ويخفي فرحة تزغرد في صدره بمودة ابنه إليه ..

ولم يتقدم مصطفى لتقبل يد والده على الأقل ليشكره على مسعاه في الإفراج عنه بل ظل واقفا أمامه متجهما بسخطه كأنه يقاوم ما تعود عليه من احترام أبيه ويريد أن ينفث سخطه في وجهه ..
ويدأ الأب قائلا :

— ما أعجب ما وصلت إليه حتى يقبض عليك وتوضع في السجن ..

وقال مصطفى كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم نفسه :

— لقد فضحت ..

وقال الأب مقاطعا :

— فضحت لأنك دخلت السجن ..

وصاح مصطفى :

— لا .. فضحت لأنه أفرج عنى وحدى دون باقى زملائي الذين قبض عليهم .. لماذا يفرج عنى وحلى .. إنى لست بريئا حتى يكون الظلم قد دفع إلى القبض علينا .. أنا وزملائي .. لقد كنت مشتركا معهم في كل ما قامت به الحركة الوطنية .. وإنى متأكد وكل زملائي متأكدون بأنه لم يفرج عنى إلا لأنى ابنك .. وإذا كنت قد سميت بالإفراج عنى فلماذا لم يكن الإفراج عنا كلنا .. حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة ..

وقال الأب وهو مذعور من تهجم ابنه عليه لأول مرة :

— إنى مسئول عنك .. ولست مسئولاً عن الباقيين ..

وقال مصطفى مستمرا في ثورته :

— إنك مسئول عن العدالة .. والعدالة التى تفرض الإفراج عنى تفرض أيضا الإفراج عن باقى الزملاء .. وإلا كانت العدالة لا تفرج عنى ولا عنهم ..

وقال الأب كأنه يحاول أن يهرب من ثورة ابنه :

— إنى أعرف أساليب الحكومة .. وما دامت قد أفرجت عنك حتى لمجرد مجاملتى فسيضطرون إلى الإفراج عن باقى زملائك حتى لا يتهموا جهله المجاملة ..

وقال مصطفى وهو يعتمد عن أمه وأبيه :

— من يدري .. وقد كان الواجب أن نبقي كلنا في السجن أو نخرج كلنا منه .. حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة ..

وصالح الأب كأنه لم يعد يحتمل ثورة ابنه :

— أى فضيحة تقصد ؟

وقال الابن وهو يعتمد :

— فضيحة أنى لا أساوى إلا أنى ابن رضوان اللسوكى ..

ولاحقته أمه كأنها لا تأبه بما يقال :

— ألا تتناول معنا الغداء ..

وقال وهو يدخل غرفته وقبل أن يقفل الباب وراءه :

— لقد أكلت مع زملاي داخل السجن ..

وأغلق الباب بعنف .. وصمعت أمه صوت المفتاح وهو يدور في القفل .. كأنه قرر أن يسجن نفسه في غرفته حتى يفرج عن زملائه من السجن الكبير ..

والقى مصطفى نفسه على فراشه كأنه وقع صريع الهزيمة .. هزيمته في أن يقوم لنفسه شخصية مستقلة عن أبيه .. شخصيته كطالب حر مكافح يتحمل مسئولية فرض قوته لإنقاذ مصر الوطن .. وهو كشخصية مستقلة عن أبيه دخل السجن .. ولكنه لم يبق فيه إلا ساعات حتى فرضت شخصيته المقيدة بأنه مجرد ابن لأبيه نفسها على المسئولين فأفجروا عنه وحده دون باقى الأبناء لأباء آخرين ..

ماذا حدث ليلتها ؟

لقد استمر اجتماع شلة الأصدقاء في شقة فتحى إبراهيم حتى الساعة الثانية صباحا وهم يناقشون موضوع المنشور الجديد الذى قرروا إصداره .. ثم فجأة داهم البوليس الشقة وقبض عليهم كلهم .. واستلموا صاغرين هادئين .. كأنهم لم يفاجئوا .. رغم أن معظمهم يقبض عليه لأول مرة .. وكانت أم فتحى وأبوه قد استيقظا على ضجيج البوليس .. ووقفت الأم مبهورة وعيناها معلقتان في جزع وشفتاها تتحركان دون كلام .. كأنها تردد في داخلها آيات من القرآن أو دعوات لله .. وأبوه واقف مبجلقا في ابنه وحده دون من حوله ، وحس والبوليس يشده خارجا :

== شد حيلك يا ابنى ..

لم يودعهم في الشقة صراخ أو عويل أو أى محاولة لتحدى عساكر البوليس .. كأن ما حدث يعتبر حدثا طبيعيا تتعرض له دائما حياة الناس .. حياة الناس الغلابة ..

ولكن .. كيف عرف البوليس أنهم مجتمعون في شقة فتحى إبراهيم .. ومن أبلغهم .. هل بينهم جاسوس من جواسيس البوليس .. إنه لا يدري .. وقطب مصطفى حاجبيه وعلت وجهه ملامح السخط وقد مر عليه خاطر أسود .. ربما اتهمه زملاؤه الأصدقاء بأنه هو الذى كان ينقل أخبار اجتماعاتهم إلى البوليس .. أنه الوحيد الغريب عنهم وعن حياة الغلابة .. إنه ابن المليونير الذى يتعارض مع كل ما في حياته مع كل ما في حياتهم .. ثم سأل مصطفى نفسه .. ترى هل كان البوليس يمكن أن يفاجئهم ويقبض عليهم لو كانوا مجتمعين في بيته هو .. بيت المليونير رضوان

الدسوقي .. لا يظن ... كان كل ما يمكن أن يحدث بعد أن تصل
أخبار هذه الاجتماعات إلى البوليس هو أن يتصل وزير الداخلية بأبيه
ويرجوه أن يجرم على ابنه عقد هذه الاجتماعات في بيته .. حتى يضطر
الطالبة إلى عقد اجتماعاتهم في مكان آخر يستطيعون مهاجمتهم فيه ..
وضغط مصطفى على شفتيه كأنه بعض نفسه ويلومها .. لقد كان
يجب أن يدعوا زملاءه إلى عقد اجتماعاتهم في بيته حتى يحميهم ويحمي
نفسه معهم .. فبيته أكثر أماناً من بيوتهم .. والاجتماع في داخله
أقوى تضليلاً للبوليس .. فمن يصدق أن يعقد اجتماع ضد الحكومة
في بيت صديق الحكومة المعروف ..

وهو لم يأبه ساعة أن قبض عليه مع زملائه .. لم يجرع ولم
يرتعد .. وبالعكس .. أحسن كأنه يزداد فخراً بشخصيته
المستقلة .. وأحسن كأنه يتباهى بوصوله إلى قمة البطولة الوطنية ..
وكل زملائه لم يأبهوا بالقبض عليهم .. ومنذ أن جمعهم البوليس في
السيارة الكبيرة التي حملتهم إلى سجن القلعة وهم يتضحكون ..
ويتبادلون النكات .. لم يعكر على واحد منهم حتى ذكر ماسيحيب
عائلته عندما تفاجأ بأن ابنها غاب عنها .. لا بد أنهم سيعرفون ماذا
حدث لأبنائهم .. إنه حدث يتعرض له كل أبناء الغلابة .. ثم بعد
أن جمعهم السجن في زنزانة وألقوا بأنفسهم فوق الأرض العارية وفي
يد كل منهم بطانية ألقاها الحارس في وجهه .. لا يزالون يتضحكون
ويتبادلون النكات .. ولا يحاولون النوم .. بل إنهم بعد أن شعبوا من
الضحك بدأوا يناقشون في جدية مشروع المنشور الجديد الذي قرروا
إصداره ..

إلى أن كان صباح اليوم التالي .. وارتفعت ضحكاتهم وصرخوا

بالنكات وهم يتبادلون أطباق العدس الأسود والأرغفة التي تبلى كأنها
مخلفات عجل جاموس .. ورغم ذلك يأكلون في نهم كأن مجرد
وجودهم معا يفتح الشهية .. وكانت الساعة قرابة الظهر عندما دخل
عليهم ضابط من ضباط السجن ونادى على اسم .. مصطفى رضوان
الدسوقي .. ثم ابتسم له ابتسامة محترمة عندما انتصب مصطفى
أمامه .. وقال في أدب :

— تفضل معي ..

وساد صمت مفاجئ على كل الأصدقاء .. ولا يدري مصطفى
كيف قدروا فوراً أنه استدعى للإفراج عنه .. والإفراج عنه وحده ..
إنهم لا ينسون أنه ليس منهم .. ثم ارتفع صوت ساس وهو يضع
بالغضب من هذه المفاجأة :

— لا تنس أن تطمئن عائلتي ..

وقال مرتضى كأنه يسخر منه :

— سلم لي على أمي .. قل لها إن كلها يومين وأعود إليها لتفرح
بى ..

وشده محبى الدين عبد السلام من جانب الضابط وهمس في
أذنه :

— إنني احتفظ بالباقي من أوراق المنشورات في البيت ..
وأخشى أن يقتشوه .. قل لنبي أن تتصل بأختي وتأخذ المنشورات
خارج البيت أو تحرقها ..

ولم يحاول ضابط السجن حرماته من تلقى هذه الهمسات كأنه

بحترمه منتهى الاحترام .. إلى أن خرج به من الزنزانة .. وفتحي
إبراهيم يصبح وراه من خلال ضحكة عصبية :

- لا تنس أن تأكل لي قرطاس دندورمه .. فإني في شوق
للدندورمه ..

* واستمرت إجراءات الإفراج ساعات وهم يعاملون مصطفى كأنه
ضيف هام .. فإن أمر الإفراج عنه وصلهم من مكتب الوزير فلا بد
أنه شخصية هامة .. حتى أن مأمور السجن أصر على أن يقدم له
كوباً من الشاي وهو جالس في ضيافته .. ومصطفى يعاني من ثورة
نفسية تمزق صدره .. كيف يخرج عنه وحده .. وماذا سيقول عنه
زملائه وكيف سيواجههم .. حتى بدأ يفكر في أن يرفض الإفراج عنه
إلا مع زملائه .. ويصر على أن يبقى في السجن معهم .. ولكن هل
من حقه أن يرفض الإفراج ويفرض نفسه على الحكومة كسجين ..
إنه يبقى في السجن مطالباً بالعدالة .. فلما أن يبقى كل المشتركين في
عمل واحد داخل السجن .. وإما أن يطلق سراحهم جميعاً .. ولكن
متى كانت الحكومة حريصة على العدالة ..

وظلت الثورة مشتعلة في صدره حتى وجد نفسه خارج السجن
ثم داخل البيت .. واشتدت ثورته حتى أعلنها في وجه أبيه .. ثم
هرب منه وسجن نفسه في غرفته .. وألقى نفسه راقداً على فراشه
الوثير وصورة زملائه وهم راقدون على أسفلت الزنزانة تلح على خياله
حتى تكاد تطلق دموعه ..

وبدا يسائل نفسه .. هل يذهب إلى كليته صباح الغد .. كيف
يواجه الطلبة وهو الوحيد الذي أفرج عنه .. ربما ثار عليه الطلبة
واتهموه علناً بأنه الذي وشى بزملائه إلى البوليس وهو مطمئن أنه

لن يسجن معهم .. وربما عادوا يصبون عليه نقيمتهم ويعايرونه بأنه
ابن المليونير المعروف رضوان الدسوقي .. وأنه لا يمكن أن يكون
منهم أو يكون مخلصاً صادقاً في أي حركة وطنية يقومون بها .. وربما
اعتدلوا عليه حتى يفرجوا عن ثمنياتهم بالاعتداء على أبيه وأمثال
أبيه .. إنه لن يستطيع أن يدخل الكلية وحده حتى لو التفت حوله
فيها بضعة من الطلبة المنافقين الذين يعرفهم .. المنافقون لأصحاب
المالين وأبنائهم ..

لا .. لن يدخل الجامعة إلا بصحبة زملائه بعد الإفراج
عنهم ..

ولكنه يريد أن يرى نهي .. ولو لمجرد إبلاغها بالرسالة التي
حلها له محي الدين عبد السلام .. كيف يراها ويلقها ؟
وأمة تعود بين حين وحين وتنقر على باب غرفته وهي تصبح باكياً
مستجدياً حتى يفتح لها .. لمجرد أن تراه وتطمئن عليه .. إلى أن
غلبته شفقتة عليها وفتح لها الباب .. وجلست ملتصقة به وهي
لا تكف عن الكلام .. وهو لا يستمع إليها .. لا يحس بيديها وهي
تتحسس وتربت عليه .. بل إنه استسلم إليها متقاداً وهي تشده إلى
المائدة لتناول طعام العشاء .. وتركها تدس اللقم في فمه كأنه طفل
غير قادر على إطعام نفسه .. وعقله كله ساهم .. هل يذهب إلى
الجامعة .. وكيف يقابل نهي .. ثم كأنه ضاق بهذا الاستسلام لأمه
فقفز من أمامها .. ودخل غرفته وأغلق الباب وراه بالمفتاح حتى
يطمئن إلى أن والده لن يفتحه عليه كعادته بعد أن يعود من عمله كل
مساء ..

ي ضائعا مع أفكاره التي تنهك عقله

وفي الصباح الباكر خرج مصطفى من البيت وقد تعمد ألا يرى أباه وإن كان قد مر بأمه كأنه يودعها .. وركب سيارته .. وهو لا يدري إلى أين .. كل ما يريد ألا يراه أحد أو يرى أحدا .. كأنه يتشتر على فضيحتة .. فضيحة إفراج الحكومة عنه وحده .. وجري بالسيارة في سرعة جنونية إلى أن وصل إلى صحراء الهرم وتوقف في ركن .. وألقى نفسه غارقا في أفكاره .. ثم خاف على نفسه من الزهق من وحدته ومن ثقل أفكاره عليه فانطلق بالسيارة إلى طريق الفيوم .. وانطلق فيه بالسرعة المجنونة .. إن قيادة السيارة تخفف من عذاب فكره .. إنه يقود بهذه السرعة كأنه مستسلم لكرابيج نهال على ظهره وتعذبه عذابا يلهيه عن أفكاره التي يتعذب بها ..

وكانت الساعة قد تعدت الواحدة وقاربت الدراسة في كلية الهندسة على الانتهاء .. فعاد بسيارته ووقف بها قريبا من أبواب الجامعة .. وبحيث يستطيع أن يرى محطة الأنويس التي تعودت نهي أن تنتظر فيها لتعود إلى بيتها .. وبعد فترة لمحها من بعيد وهي قادمة .. فانطلق بسيارته إليها ووقف بها قبالتها حتى كاد يدمعها وصوت الفرامل يزقق كأنه يصرخ ..

وقالت نهي بمجرد أن شاهده في فرحة :

هل أفرج عنكم ؟

وقال متعجلا :

أرجوك .. اركبي .. الأمر مهم ..

وتلفتت نهي حولها كأنها تحاول اكتشاف من يرقبها ثم قفزت إلى داخل السيارة جالسة بجانبه وقالت :

— نهي لم أواحدا من زملاء الأصدقاء داخل الكلية ..

ولم يرد عليها مصطفى مباشرة وقاد سيارته بسرعة مبتعدا عن عيون الطلبة ثم وقف بها تحت الكوبري القريب .. وقال وهو يزفر أنفاسه ودون أن يواجهها بعينيه :

— لقد أفرج عنى وحدي ..

وشهقت نهي كأنها صدمت وقالت في سخط :

— وحديك .. لماذا وحديك .. لأنك ابن صاحب العزة والفخامة والسيادة المليونير .. أما باقي الزملاء فهم من أولاد الغلبة .. ومن حق سيادتك أن تكون حرا .. أما هم فليس لهم حق الحرية ..

وقال مصطفى وهو ينظر إليها في لوم :

— إنهم أكثر حرية مني .. إن من حقهم أن يبقوا في السجن .. أحساروا في السجن .. أما أنا فقد أفرج عنى رغم أني .. إنهم لا يزالون في السجن محتفظين بأرائهم .. أما أنا فإن البوليس لا يعتبرني كأني صاحب رأى إنما الرأى المفروض على هورأى أبى .. كأنهم أفرجوا عن أبى لا عنى ..

وقالت نهي وهي تبتسم هذه الابتسامة الواسعة التي تعودت أن تظلل بها مناقشتها .. ووجهها متجههم يضحج بالسخط :

— متى أفرج عنك ؟

وقال في صوت خافت كأنه خجل من فضيحتة :

— أمس ..

وقالت نهي كأنها تسخر منه دون أن تخفف عنه ابتسامتها :

— أي بقيت في السجن ساعات .. هذا كثير على أبناء الطبقة المدللة .. ولكن لماذا لم تدخل اليوم الكلية ليكون لقاؤنا طبعيا ..

• وقال مصطفى وكأنه ناغم على نفسه :

— لم أكن أستطيع أن أواجه الطلبة بعد أن أفرج عني وحدي .. وأواجه نعمتهم .. ولكني عرضت نفسي لمواجهة نعمتك لثقتي في صداقتك ولأنني تعودت عليك ناظمة على ..

ثم التفت إليها كأنه استطاع أن يقاوم نفسه وقال في حزم :

— دعينا الآن من هذا الكلام .. فهناك ما هو مطلوب منك .. إن محي الدين عبد السلام يريدك أن تذهبي إلى أخته وتبحثا عن كمية باقية من أوراق المنشورات لا يزال يحتفظ بها .. وتقوما بحرقها أو تهريبها لأنه يخشى أن يقوم البوليس بتفتيش البيت .. ومرسى ومرضى يطلبان الاتصال بعائلتهما وطمانتهما على أنها يعاملان معاملة طبيعية داخل السجن ..

وقالت نهي في حماس كأنها قررت التطوع في حرب :

— سأبدأ الآن بزيارة أخت محي ..
ومد مصطفى يده في جيبه وأخرج مجموعة من الأوراق المالية وقال وهو يناولها لنهي :

— هذه تسعون جنيها بقيت من حساب الحركة .. احتفظي بها معك ..

وقالت نهي وهي تنظر إليه كأنها لا تفهمه وتقبض كفها حتى لا يلقى فيه بالملغ :

— إنك مهما كان ما حدث لا تزال أمانة للصندوق .. وأنت المشول عن توفير أي مبلغ يخص الحركة ..

وقال مصطفى في تصميم كأنه لا يقبل المناقشة :

— لقد قررت أن أبتعد عن كل ما يتصل بالحركة ما دام رملاني في السجن .. ورغم أن والدي وعدني بالإفراج عنهم قريبا إلا أنني لست مطمئنا لوعده .. وأغلبية الأصدقاء لم يكونوا معا في ليلة اجتماعنا في شقة فتحي إبراهيم ولم يقبض عليهم .. وقد يفكرون في إصدار منشورات، بل يجب أن يقوموا بحركة إلحاح للإفراج عن الأصدقاء .. وهم في حاجة إلى تمويل هذه الحركة .. (وابتسم ابتسامة ضعيفة مستطردا) .. اعتبري نفسك نائبة أمين الصندوق ..

وقالت وهي تفتح كفها لتلقى المبلغ كأنها ونفتت :

— هل هناك مطالب أخرى ..

وقال مصطفى وهو ينظر إليها مبتسما في رجاء :

— إنه مطلب خاص .. لا أدري إذا كان من حق أن أطلبه أم لا .. فإن موعد الامتحانات قد اقترب .. وأنا مصمم على أن أنجح هذا العام ..

وقاطعته نهي ساخرة في مرارة :

— لماذا لا تنتظر أن يفرج عن باقي الشلة حتى تتقدموا إلى الامتحان معا وتنجحوا معا .. حتى لا تنجح وحدك كما أفرج عنك وحدك ..

وقال وهو يحني رأسه مستسلما لتهجمها عليه :

- إنهم وهم في السجن أصبح من حقهم أن يطلبوا الكتب ويقضوا الوقت في المذاكرة ويتقدموا للامتحان .. كثيرون من الطلبة نجحوا وهم داخل السجن .. وأنا سأسجن نفسي داخل بيتي .. وهو بهجن أعنف وأقسى من سجنهم .. لأنه سجن انفرادي .. وسكنت نهي وهي تلوى شفتيها كأنها قرفانة واستطرد مصطفى قائلا :

- إنني أتمنى لو أسبغت على جيلا وأنا مسجون بأن تتصل بالزملاء ليعطوك أوراق المحاضرات لأسجلها لنفسي وأعيدها إليهم ويحذروا لك مواضيع الدروس التي تلقوها وأنا غائب عنهم حتى أدرسها .. فقد قررت ألا أتصل بأى زميل منها كان صديقا .. كما أني أرجو ألا تصارحيهم بأنك تجمعين هذه الدروس والمحاضرات من أجل .. إنني واثق أنك تستطعين التحايل عليهم .. لو قبلت أن تأسريني بهذا الجميل ..

وتوقفت برهة كأنها مترددة ثم قالت وهي تمد يدها تفتح باب السيارة :

- سأحاول ..

وقال بسرعة :

- سنلتقي هنا غدا .. تحت الكوبرى في مثل هذه الساعة ..

وقالت وهي تقفز من السيارة :

- لا .. ليس غدا .. بعد غد ..

وصاح يستوقفها :

- انتظري إلى أن أصل بك قرب بيتك ..

وقالت دون أن تنظر إليه :

- لا .. هذا يكفي ..

وأسرعت في خطاها مبتعدة عنه كأنها تهرب من المموم التي صبها عليها ..

—

الفصل الثامن

كان الأب رضوان الدسوقي جالسا في انتظار ابنه مصطفى ليتناول معه طعام الغداء كما كانت عادته . . ولكن هذه العادة أصابها الخلل منذ أيام طويلة . . وقد أصبح ابنه لا يجلس معه لتناول الغداء . . بل إنه يتعمد ألا يجتمع به أبدا . . وهو يعلم . . الآن في البيت تخفف عنه في غرفته مدع أنه متفرغ لدراسته وأنه سبق أن تناول الغداء وحده . . وأمه تؤكد له أنه فعلا تناول الغداء وحده قبل أن يعود أبوه من عمله . . ورغم ذلك فالأب لا يزال يجلس منتظرا ابنه . . إنه لا يستطيع أن يتنازل عن إحساسه بالنظام الذي فرضه على نفسه وعلى العائلة . . إلى أن تمخض الساعرة التي يحددها هذا النظام لتناول الغداء . . ولا يجد دافعا يدفعه إلى الإخلال بالنظام وأن يمد في ساعات انتظاره كما كان يفعل كلما غاب عنه ابنه . . إنه يائس من أن يعود إليه ابنه . . ويضطر إلى الجلوس إلى المائدة مع زوجته وحدهما . . يلقي باللقيات في جوفه وهو هائم مع أنه كأنه في حالة حب مقهور . .

وكان لا يكف عن سؤال نفسه . . ماذا يريد من ابنه وماذا يريد له . . وهو لا يريد له إلا أن يعيش في قمة الطبقة الاجتماعية . . طبقة السيادة والثراء . . بعد أن قفز به من الطبقة التي عاش هو ووالده فيها . . طبقة الخدم الغلابة المستسلمين . . ولكن . . أين هي اليوم طبقة السيادة والثراء . . إنه هو نفسه بعد أن أصبح يملك كل هذه

الملايين لا يعتبر نفسه عمشلا لطبقة . . إنه لا يمثل إلا نفسه .
ولا يزال يعيش وهو مهدد لو تخلى عنه ذكاؤه لحظة أن تضيق منه ملايئنه
ويطرد شر طردة بعيدا عن مسئولياته ويعود غلبان شحاذا كما كان
أبوه . . إن مصر لا تحكمها طبقة اجتماعية ذات سيادة إنما يحكمها مجرد
مجموعة من الأفراد . . كل فرد قائم بذاته . . وأيام رمان . . أى قبل
الثورة . . كانت مصر تحكمها طبقة السيادة . . وهى طبقة كانت
تفرض واقعها بملكية الأرض . . كل الأرض . . وكانت قد
استطاعت عبر مئات السنين أن تصنع لنفسها تقاليد ومظاهر اجتماعية
ترفعها عن باقى طبقات الشعب . . وكانت تتوارث السيادة توارث
ملكية الأرض . . إلى أن قامت الثورة فضاعت سيادة ملكية الأرض
وتمزقت حتى لم تعد الأرض قادرة على خلق طبقة تمثلها . . كما أنها ثورة
لم تعتمد على طبقة متألفة منظمة . . ولم تصنع تقاليد ولا مظاهر
اجتماعية مستقرة تكفى لحماية طبقة . . لم تصنع إلا نظاما للحكم بفرد
الحاكم بالسيطرة عليه . . ولا تستطيع أى مجموعة أو أى فرد أن يشارك
الحاكم فى سيطرته . . ليس لمصر حتى اليوم طبقة حاكمة . . ليس لها
إلا حاكم واحد منفرد بنفسه . . وقد يصل فرد من الأفراد بشطارته أن
يصنع نفسه قريبا من الحاكم ويحظى بثقتة فيه واعتماده عليه . .
وقد يصل أحد الأفراد إلى تحقيق صفقات مذهلة ترفعه إلى مستوى
أصحاب الملايين . . ولكن كل هؤلاء لا يمثلون طبقة مستقرة من
طبقات المجتمع المصرى . . ويبقون دائما مجرد أفراد لا قيمة لهم .
والقريب من الحاكم قد يعد ويصيح فردا عاديا من الغلبة لا يساوى
شيئا . . وصاحب الملايين يعيش مهددا بأن يغضب عليه الحاكم يوما
ويجرمه من ملايئنه . . أو قد يهرب هذه الملايين إلى خارج مصر ويهرب
معها . . أبس الأفراد الذين كنا نردد أسماؤهم أيام الحاكم جمال عد

الناصر . . ثم الأسماء التى ظهرت أيام أنور السادات . . لقد اختفت
كلها . . ضاعت . . لأنها أسماء لأفراد لا يمثلون طبقة مستقرة
تتوارث نفسها . . إلا فردا أو اثنين استطاعا أن يتقلا من رضاه حاكم
إلى رضاه الحاكم الآخر . .

وابتسم رضوان الدسوقي ابتسامة مرة وهو مستطرد فى تفسيراته
السياسية التى تعود عليها إلى حد الإدمان منذ كان صبيا . . استطيد
يسائل نفسه عما يريده من الله . . لقد كان غيبيا أو مغرورا بنفسه وهو
يطالب الله بأن يحصر نفسه داخل الطبقة الراقية العليا التى تعيش
متنوى الرخاء والسيطرة الاجتماعية . . ويتعد مترفعا عن طبقة الغلبة
التي لا تملك سوى الأحلام التى تدفعها إلى الثورة والانطلاق فى
مظاهرات سياسية أو إصدار منشورات أو القيام بعمليات عنيفة
يسمونها أحيالا فدائية . . إن هذا التفريق بين الطبقات ليس تفريقا
واقعي . . وقد يهرب أبناء الأغنياء من فكرهم بأن ينفاروا فى متنوى
الانحلال والصراحة . . أو يكونوا من الغباء بحيث لا يقدرون من
الحياة إلا مظاهرها . . أما إذا سيطر عليهم فكر سياسى وطنى واقعى
فسيجدون أنفسهم حتما مشتركين مع نفس فكر الغلبة . . إنه هو
نفسه بعد أن أصبح مليونيرا يعترف بأنه لا يزال محتفظا بعقلية
الغلبة . كل ما تغير فيه هو مظاهر حياته . . لقد أصبح يقيم فى قصر
بعد أن كان يقيم فى حارة . . وأصبح يضع نفسه فى سيارة فاخرة بعد
أن كان لا يملك إلا أن يسير على قدميه فوق حذاء قديم . . والذي
يفرق بينه وبين ابنه . . أن فكره كان يهرب به من التعرض للمصارحة
الوطنية رغم إيمانه واقتناعه بها لأنه كان متعلقا بهدف أكبر . . وهو أن
ينقل نفسه من بين الغلبة إلى أن يكون فردا ثريا واسع الثراء . .

ولكن ابنه وجد نفسه وقد ولد ثريا فلم يعد مضطرا إلى أن يهرب من فكره المرتبط بفكر الغلبة فعاش معهم أحلامهم وبدأ يساهم في عملياتهم السياسية الوطنية ..

و رغم ذلك .. يجب أن يجد لابنه طريقا ليعيش به حريصا على صيانة هذا الوضع الذي ولد فيه .. إن ابنه سيبره وهو يريد أن يطمئن إلى أنه سيصون ملايته .. بل ويتمنى أن يستطيع أن يزيد عليها ملايين .. ولا يضيعها بانقياده إلى الغلبة ..

وقفز من جانب المائدة قبل أن يتم غداءه كأنها استقر على فكرة .. واندفع إلى غرفة مصطفى وهم أن يفتح الباب ولكنه وجد مغلقا بالفتاح ففرغ عليه صائحا :

— افتح يا مصطفى .. أريد أن ألتحدث إليك ..

ومرت لحظات كان مصطفى لن يفتح له الباب .. ولكنه فتح له .. وكانت رأسه منكسة كأنه لا يريد أن يرى أباه .. ثم تركه يدخل وهو يدير ظهره له .

وجلس الأب على مقعد من مقاعد الحجرة كأنه قرر أن يبقى فيها طويلا قائلا :

— إن تعمدك الابتعاد عني لن يحل أى مشكلة ..

والنفت إليه ابنه قائلا فى عنف مهذب :

— إن المشكلة الوحيدة هى الإفراج عن زملائي الذين قبض عليهم وأنا معهم ومنهم .. وقد مرت إلى الآن ثلاثة أسابيع ولم يفرج عن أى واحد منهم ..

وقال الأب مستهينا :

— ولماذا كنت تريدنى أن أفعل ..

وقال الابن فى حدة ساخطة :

— إنك صديق لرئيس الحكومة .. وقد استطعت بصداقتك له أن تخرجنى من السجن .. ووعدتنى بأنه سيفرج بعدى عن بقية زملائي ..

وقال الأب وهو ينظر إلى ابنه كأنه يشفق عليه من سذاجته :

— إن أى رئيس ليس له أى صديق .. كما تتصور معنى الصداقة .. إنما الرئيس لا يربطه بأى فرد إلا حاجته إلى التعامل معه .. وحاجتهم إلى التعامل معى ربما لا تساوى أكثر من الإفراج عن ابنى ولا تصل إلى حد الإفراج عن زملاء ابنى ..

وقال الابن وقد ارتفع صوته :

— إن قيمة تعاملك مع الحكومة لم تصل إلى حد صيانة كرامة ابنك بين الطلبة .. بل تركته يبدو كأنه قطعة من قمامة الزبالاة ألقيتها فى الشارع .. ولعل لما أبلفتك أنى عمتنع عن الذهاب إلى الجامعة .. أتندرى لماذا .. حتى لا أواجه الطلبة بفضيحة الإفراج عنى وحدى .. أى حتى لا أظهر بينهم كمجرد أحد أفراد زبالاة الحكومة ..

وقال الأب فى هدوء متحملا ثورة ابنه :

— إن امتناعك عن الجامعة أوحى إلى بفكرة .. وهى أن أرسلك لستم تعليمك فى أمريكا ..

وصرخ الابن :

— لن أسافر . . وسأدخل الامتحان القريب .

وقال الأب في تأكيد وهو يتسهم كأنه يتحائل على ابنه أن يهدأ :

— وأنا واثق أنك ستنجح في الامتحان .

والتسم الاس وقد تخيل ان أباه بضمن له النجاح بأن يسمى
بفوزه لإنجاحه . كل أساء الرؤساء وأصحاب البعوض ينجحون في
كل امتحانات الجامعة دون أن يستوعبوا منها أى كلمة . بل دون أن
يتنازلوا ويواظبوا على تلقي دروسهم . وأستاذ الجامعة الوحيد الذى
اعترض على إسجاح تلميذ من أبناء الرؤساء طرد من الجامعة . .
ولا يزال مطرودا حتى اليوم . . بل ظهرت شخصيات بين العائلة
الحاكمة منحت شهادة الدكتوراه رغم أنها لم تكن تحمل أى شهادة
جامعية قبل أن تصل عائلتها إلى الحكم . وأبوه واثق أنه بتليفون
واحد إلى المسئول عن الجامعة يستطيع أن ينححه في الامتحان إلى أن
يأتى له بشهادة الدكتوراه . .

وقال الابن وكأنه يتحدث أباه :

— سأنجح في الامتحان معتمدا على نفسى .

وقال الأب ووجهه يتجهم غاضبا :

— أنا لم أقصد أن تعتمد على أنا في نجاحك . ولكى واثق و
أنك تستطيع أن تنجح في أى امتحان تريد أن تنجح فيه . ولذلك
لم أكن أتاثر بما سبق أن رسبت فيه من امتحانات . . لأنى كنت أقدر
أنك لا تريد النجاح . . ولكن بما أنك أصبحت تريده فستنجح
إنك مثل أبيك تنجح في كل ما تريده . . وترفض أن تنجح في أى
شئ يفرض عليك .

وهذا الابن قليلا ثم قال :

— لماذا تريدنى أن أترك مصر وأتم تعليمى في أمريكا . .

وقال الأب كأنه يفرى ابنه :

— إن أمريكا هى قمة العلم والتعليم . .

وقال الابن ساخرا :

— سأوفر عليك تكاليف القمة وأتم تعليمى هنا مع الغلابة . .

وقال الأب مبتسما :

— لقد انتقلت أنا نفسى إلى أمريكا . . وبدأت التفكير في إقامة

مكتب لنا هناك . . في شيكاغو . .

— ويرقت الدهشة في عيني مصطفى وقال وهو مبجلق في وجه
أبيه :

— ماذا تفعل في أمريكا . . إننى أفهم أن كل أعمالنا تقوم على

تمويل مشروعات . . أى أن حضرتك يا بابا مقاول تمويل . . كما

يوجد مقاول للتنفيذ . . ومقاول عمال . . ولكن مصر ليست في حاجة

إلى مقاول لتمويل مشروعاتها من أمريكا . . إن التمويل يتم مباشرة

بين الدولتين . . الحكومة الأمريكية تمد الحكومة المصرية بالدولارات

في شكل قروض أو إعانات بشرط أن تتولى هي إقامة هذه المشروعات

حتى تعود دولاراتها إليها أولا تخرج من سلطاتها . .

وقال الأب وهو يتسهم فرحا بأن ابنه يناقشه في موضوع جاد :

— إنهم في أمريكا لا يؤمنون بأن الحكومات تستطيع تنفيذ

المشروعات . . إنهم يقصرون اتفاقهم مع الحكومة على تمويلها

بالقروض والمعونات ولكن تنفيذ المشروعات التى تقوم على هذا

التمويل يجب أن تتولاه شركات خاصة .. حرة .. أى أنهم لا يتعاملون مع ما نسميه القطاع العام ولكنهم يصرون على التعامل مع القطاع الخاص .. وهذا هو النظام الاقتصادي في أمريكا نفسها .. أوروبا كانت عقلية الإدارة الأمريكية تجد أن التعامل مع النظام الخاص أسهل في فرض سيطرتها عليه والاطمئنان إليه من التعامل مع القطاع العام التابع للحكومة فإنه معرض دائما للتأثر بالخلافات السياسية التي تطرأ على العلاقة بين الدولتين .. ولذلك فقد اضطرت الحكومة المصرية إلى توزيع الدولارات التي غنمها أمريكا على رجال القطاع الخاص الذين يستطيعون تنفيذ المشروعات .. وكثير من المشروعات الخاصة تحمل الآن برؤوس أموال القروض والمنح الأمريكية .. حتى شركات الطاعة والنشر التي تصدر كل ما يمكن أن يقرأه الشعب بدأ معظمها في استغلال الدولارات التي منحتها أمريكا لمصر في تجديد مطابعها وآلاتها وتطويرها حتى تصل بها إلى مستوى القمة العالمية .. بموافقة أمريكا طبعاً رغم ما يقال من أن الحكومة المصرية ليست مسئولة عن شركات النشر مسئولية مباشرة ..

وقال الابن مقاطعاً في سخط :

— أى أن أمريكا أصبحت اليوم هى المسئولة عن كل ما يقرؤه الشعب المصرى .. فالممول هو صاحب الحق الأول في تحديد ما ينشر ليقرأ ..

وقال الأب وهو لا يزال محتفظاً بفرحته بمناقشة ابنه :

— المهم هو قيمة التمويل .. وفي لندن وباريس تصدر الآن صحف عربية .. ومجلات ومنشورات رائعة تغذى العقل العربى

معلومات ودراسات راقية .. وكلها يعتمد أصحابها على تمويل خارجى ليس التمويل الأمريكى وحده بل تمويل متعدد المصادر .. بما فيها مصادر البترول العربى .. وقد يكون تمويل روسيا .. وهو اختلاف مصادر التمويل .. والفرق الأكبر والواضح بين هذه المطبوعات هو في قيمة التمويل الذى يحدد مستوى قيمة المطبوعات ومستوى قوة اجتذابها للقارئ ..

وهم مصطفى أن يقاطع أباه ولكن أباه صده مستطرداً قائلاً :

— دعنا في المهم .. إن المنافسة القوية الخطيرة القائمة اليوم في

مصر هى المنافسة القائمة بين شركات القطاع الخاص ورجال الأعمال المستغلين ليصل كل منهم إلى رضا الحكومة حتى تمنحه جزءاً من مبالغ الديون والمعونات الأمريكية ليقوم بتنفيذ مشروع من مشروعاتها .. وأبوك ليس مجرد مقال تمويل .. كما تقول .. إنى لست مجرد شك يسعى لجمع الإبداعات من رؤوس الأموال .. ولكى أيضاً مقال تنمى تحقيق على يدى كثير من المشروعات ..

ولو أبى أكره وأرفض وصفى نأى مقال .. بل إنى أرفض أن أوصف نأى رجل أعمال .. إسمها صفتان تحدان مهنة تحيطها كثير من الشبهات والانتقادات .. وأفضل أن يعرفنى الناس كمجرد ابن من أبناء مصر يعيش في خدمة وطنه .. إن طلعت حرب لا يوصف بأنه مقال أو رجل أعمال .. بل إنه يعرف بأنه رعيم الاقتصاد الوطنى ..

وأنا لا أنطلق إلى أن أكون زعيماً كطلعت حرب ولكى أتمنى أن أعرف نأى مجرد واحد من مريديه يستمد منه عبقريته .. وقد استطعت بعقميتى أن أقنع الحكومة بأن تصع بين يدى ميزانية ضخمة من ملايين القروض والمنح الأمريكية .. ملايين الدولارات .. لتنفيذ

مشروع اتفق عليه بين الدولتين . . وهو مشروع مد خط سكة حديد يصل إلى اخر حدود مصر الغربية . . أى إلى أبعد من مرسى مطروح بعدة كيلومترات . . وهو مشروع قديم تعلم به مصر من عشرات السنين . . لأن خط السكة الحديد القائم حتى اليوم على هذه الناحية هو خط واحد منفرد لا يحقق ارتباط مصر بعضها ببعض من أولها إلى آخرها . . وأنا واثق أنى سأحقق هذا المشروع . . وقد وجدت منذ البداية أنى يجب أن أكون على صلة بالادارة الأمريكية وأنى يجب أن يكون لى مكتب هناك يتولى استيراد الآلات والمعدات والخبراء والتفاهم مع المسؤولين . .

والابن يستمع إلى أبيه مركزا كل عقله ليستوعب ويفهم كل كلمة . . وسكت لحظة ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— لعل مصر تفكر فى هذا المشروع كمشروع مدنى لخدمة الشعب . . ولكن أمريكا وافقت عليه كمشروع عسكري يوفر لها متطلبات السيطرة العسكرية على كل المنطقة . . حتى لو أنجحت هذه السيطرة وراء مشروع يبدو كأنه مشروع برىء لتحقيق النهضة المصرية . .

وقال الأب وهو ينظر إلى ابنه فى إشفاق :

— إن كل مشروع مدنى عام يشمل التخطيط العسكرى . . لو أقمنا كوبرى صغيرا على النيل ليمر عليه أهالى الضفتين . . فستمر عليه أيضا القوات العسكرية . . والمهم هو تحديد من له حق المرور . . هل هو حق قاصر على القوات المصرية أو هو حق أيضا للقوات الأمريكية . .

وسكت الابن برهة أخرى ورأسه قد أحنأها ثقل أفكاره . . ثم رفع رأسه قائلا فى تصميم :

— اسمح لى يا بابا أن أطلبك بأن تبعدنى عن مسئولياتك . . إن لى مسئوليات خاصة . . ولن أسافر إلى أمريكا . . لأن مسئوليتى تفرض على أن أبقى هنا . . إنى مقتنع بأن الجهاد يجب أن يبدأ فى الداخل حتى نصل إلى القوة التى نواجه بها الخارج . . نواجه بها التعامل مع أمريكا . .

وقام الأب واقفا من على مقعده وقد تجردت ابتسامته من الفرحه وأصبحت كأنها ابتسامة رجاء وتوسل :

— لقد عودتك على أن أتركك حرا فى مسئوليتك عن نفسك . . وكل ما أتناه هو أن تسمر فى التكبر فلعلك تقنع نفسك باستكمال دراستك فى أمريكا . .

وقال الابن كأنه يحتفظ بشخصيته أمام أبيه :

— لن أقنع . . فانى أحس كأنك تريد أن تبعدنى عن الحركة الوطنية التى أصحت مقتنعا بها مع زملائى فى الجامعة . .

وقال الأب وهو لا ينظر إلى ابنه :

— إن الحركة الوطنية مفروضة على كل مصرى سواء فى الداخل أو الخارج . .

ثم عاد ينظر إلى ابنه وهو خارج من باب الغرفة قائلا بلهجة أمرة :

— إن ما أريدك منك هو أن تعود وتواظب على تناول الغداء معى لتبادل المناقشة . فإن هذا التباعد لن يحل أى مشكلة أو اختلاف فى الرأى بيننا .

وقال الابن فى أدب كأنه عاد مستسلما إلى أبيه :

— حاضر .

الفصل التاسع

وعاد مصطفى يجلس إلى مكتبه داخل غرفته يستذكر دروس ومقررات كلية الهندسة . . ويحاول أن يبعد عن فكره كل ما سمعه من أبيه حتى يتفرغ للمذاكرة . . إنه مصمم على أن ينجح فى الامتحان . . إنه لا يمكن أن يترك نهى تذاكر بينها هولاء مترفع عن المذاكرة حتى سبقته فى سنوات الدراسة وأصبحت فى الفصل الثالث بينها هو لا يزال فى الفصل الثانى . .

وكان قد تعود أن تقفز ابتسامة حلوة إلى شفثيه كلما تذكر هى . . لا شك أنها كانت بشخصيتها دافعا قويا إلى هذه الحياة الجديدة التى يحياها وهذا الفكر الجديد الذى أصبح مسيطرا عليه . لقد كانت هى هى الدافع الأقوى الذى عرضه لأن يعيش بشخصية الطلبة الغلابية ويتعرض لما يتعرضون إليه . فتقع على رأسه ضربات البوليس . . ويقبض عليه ويدخل السجن . . لقد جردته من شخصية ابن المليونير رضوان الدسوقي ونقلته إلى شخصية قائمة بذاتها . . شخصية أقنعتة بنفسه وزودته بقوة الداتية . . وكان سعيدا بأن وجد شخصيته . . إلى أن أخرج عه وحده من بين زملاء الدين قبض عليهم معه . . واكتشف أنه لا يزال خاضعا لشخصية ابن المليونير . . وكل شيء بدأ يتغير من حوله . . حتى نهى بدأت تتغير . .

وابتسامته التي تقفز إلى شففيه اليوم وهو يذكروها ليست حلوة ..
 إنها ابتسامه مرة .. كأنها ابتسامه مهزوم .. وكانت هي الوحيدة
 بين أفراد شلة الأصدقاء التي جرى إلى لقائهما بعد الإخراج عنه ..
 وأبلغها مطالب زملائه الذين لا يزالون في السجن .. وأقنعها بأن
 تكون نائبة أمين صندوق الحركة الوطنية وأعطاهم المبلغ الذي كان
 متبقيا معه من حساب الحركة .. ثم طلب منها أن تزوده بالمحاضرات
 الدراسية التي تلقى في غيابه لأنه قرر ألا يدخل الكلية إلا إذا أخرج
 عن زملائه .. وربما كان هناك دافع أقوى لأن يجري للقاءها .. وهو
 شوقه إليها .. إلى الراحة التي يتمتع بها وهو بجانبها .. ومتعته
 بمروره على كوز الذرة المشوي الذي يفخ شهيته ..

وكان قد اتفق معها في لقاءها الأول على أن يلتقيا بعد غد تحت
 كوبري الجامعة .. وقد جاءت فعلا إلى لقاءه وحملت له بضعة أوراق
 محاضرات استطاعت أن تنقلها له .. ودار بينهما حديث سريع ..
 بصح كلمات مرصوفة لا تزوده بشيء منها .. وابتسامتها الواسعة
 التي تفيض بحيويتها منكشة في ابتسامه مفتحة .. وكانت متعجلة
 كأنها لا تطيق بقاءها بجانبه داخل سيارته .. واعتدلت بأنها
 مشغولة .. وقبل أن تتعد عنه أراد أن يحدد موعد لقاؤها التالي ..
 ولكنها رفضت .. وقالت أنها ستتصل به تليفونيا لتحديد موعد اللقاء
 بعد أن تعد له أوراقا أخرى .. ولم يستطع إلا أن يتركها تتعد عنه ..
 كأنه بطاق سراحها ولحها تتعد كأنها تجري هربا منه ..

ومر أسبوع كامل دون أن تتصل به تليفونيا لتحديد له موعد
 لقاء .. وهو يقاوم أن يذهب إليها هو ويلتقطها من أمام محطة
 الأنابيس .. إنه يريد أن يحتفظ بكرامته ولا يضعف أمامها .. إلى أن
 اتصلت به والتقيا كعادتهما .. تحت الكوبري .. ولكنه كان أيضا لقاء

فاترا سريعا .. وسلمته بعض أوراق المحاضرات .. ولم تكلف
 نفسها أن تطلعه على أخبار الكلية .. أو ترحب بالأسئلة التي
 يسألها .. وتركته بعد أن قالت له من خلال ابتسامه ساخرة وليست
 غاضبة :

— لم يفرج عن أي أحد من الأصدقاء .. هل أبوك في صحة
 جيدة ..
 وجرت هاربة ..

ورغم ذلك فقد كان يحس بأنها لا تزال مرتبطة به ..
 ولولا ارتباطها لما جاءت إليه بحجة ترويه بأوراق المحاضرات
 الدراسية .. إنه يؤكد لنفسه أنها تراه لأنها لا تستطيع أن تقاوم شوقها
 إليه .. وهو شوق يؤكد له أنها تحبه .. رغم ظروفها ورغم أنها متزوجة
 إلا أنها لا تستطيع أن تقاوم مجرد المتعة ببقائه ..

وقد مر الآن أكثر من أسبوعين دون أن تعود للاتصال به حتى
 نحمد لقاء آخر .. وهو لا يزال معتزا بنفسه ويرفض .. وهو منذ
 البداية لا يعتمد على الأوراق الدراسية التي يمكن أن تحملها إليه وهو
 يستعد للامتحان .. ربما كانت هذه الأوراق مجرد حجة افتعل أن
 يطلبها منها ليرر لقاءها .. وهو منذ البداية يعتمد على أساتذة كلية
 الهندسة الذين اتفق معهم على أن يترددا عليه في البيت في دروس
 خصوصية .. وكل منهم يبذل مجهودا كبيرا معه في إلقاء درسه ..
 اهتماما لم يكن يحظى به وهو أمامهم داخل مدرجات الجامعة .. وكل
 منهم يبدو فخورا بأنه يدرس لاس المليونير رضوان الدسوقي .. أو كان
 كل منهم سعيدا بأنه لم يجادل أسدا في قيمة الأتعاب التي يريدونها
 لنفسه .. بل إن كلا منهم كان يوصيه باستدعاء أستاذ آخر من زملائه

في الجامعة حتى يلقي عليه درسا خصوصيا في موضوع آخر . . كأن
هيئة التدريس في الجامعة قد اكتشفت كنزا تقتسمه بين أفرادها . .
السادة الأساتذة حملة الدكتوراه . .

وقد أصبح مصطفى يعتمد الحرص على تناول الغذاء مع أبيه
وغالبا ما يكون لقاء صامتا أو كلاما عابرا يشمل موضوعات عادية
عائلية كان كلا منهما لا يريد أن يطرق أى موضوعات وطنية
أوسياسية . . ولكن مصطفى يواجه أباه كل يوم وفي عينه سؤال
صامت . . هل أفرج عن زملائي . . وهو يقدر أن والده لا شك يهمهم
هذا السؤال ولكنه يتجاهله ولا يجيب عليه . . وأبوه يسأله بين يوم
 وآخر :

— هل فكرت . .

ويرد عليه مصطفى في كلمة عابرة :

— أحيانا أفكر . . ولكنى لا زلت مصمما على رأى . .

إلى أن مرت ثلاثة أسابيع . مضى على زملائه في السجن أكثر
من شهر . . ودق التلفون . . وكانت نهي تحدد موعدا للقاء . . تحت
الكوبرى . . وهو يطير من الفرحة . . إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه
أبدا مهما قاومت شوقها إليه . .

وجاءته نهي وهى تبدو كأنها عادت إلى أيام زمان . . ابتسامتها
الواسعة تراقص بين شفيتها . . وانطلاق حيويتها . . ولا تكف عن
الكلام . . إنها تروى له أخبار الكلية . . وتحكى له عن أخبار
عائلات الأصدقاء الذين لا يزالون في السجن وتوالى زيارتهم وتشارك
معهم في إعداد مطالبهم التى يرسلونها إليهم داخل السجن .

وحكايات بعضها كالتكات تشير الضحك . إلى أن استراحت
الانسامة الواسعة فوق شفيتها وقالت فى هدوء :

— لقد أصدرنا منشورا بدانا توزيعه . . نطالب بالإفراج عن
عيسى الدين وبقية الزملاء . .

وفتحت حقيبتها وأخرجت كمية من المنشورات ناولتها
لمصطفى . . وقرأ مصطفى المنشور بسرعة وملاحه تضح بالحماس
وقال :

— إنها كلمات رائعة . . صارخة . . مقنعة . . وكافى يجب أن
يصدر هذا المنشور ويوزع منذ أسابيع . .

وقالت نهي من خلال ابتسامتها الهادئة :

— لقد قررنا أن نصدر منشورا آخر . . وفورا . . ولكن نائية
أمين الصندوق أصبحت تشكو الإفلاس وفى حاجة إلى أن يزودها
أمين الصندوق بمبلغ آخر . .

وقال مصطفى دون أن يفاحا بالمطلوب منه وهو لا يزال ممسكا
بالمنشور فى يده :

— من كتب هذا المنشور . .

وقالت نهي فى تردد :

— نحن .

وعاقلها مصطفى قائلا

— من منا .

وقالت نهي وهى تحاول أن تعود وتتسع بابتسامتها كأنها تحاول أن
تفريه بها :

— كلنا واحد ..

وصاح مصطفى :

— إني أسألك عن اسم كاتب المنشور .. وأسألك عن كيف
طبعتموه .. وكيف توزعونه .. وأسألك عن كل التفاصيل .

وقالت نهي مبتسمة :

— إنها أسرار تعاهدنا ألا نبوح بها ...

وصاح :

— أسرار حتى على .. ألسنت أمين صندوق الجماعة ؟

وقالت وصوتها ينبض بالسخرية :

— إننا نعتبر أن أمين الصندوق لا يزال في السجن ..

ونظر إليها في دهشة ساخطة وقال :

— حتى الأخبار وكل التفاصيل يمكن أن تصل إلى

المسجونين ..

وقالت ساخرة وكأنها تتحمل مناقشة ثقيلة :

— إنك لست داخل السجن .. ولكنك سجين خارج

السجن .. سجين هارب .. ولا تدري أين تختبئ ..

وصاح غاضبا :

— إني لست هاربا منكم .. وإن كنت أكتفى بلفظك ..

وأنتظر الإفراج عن زملائي حتى أعود إلى الحركة الوطنية .. ومن

حقى في فترة الانتظار أن أعرف كل التفاصيل .

وقالت نهي ضاحكة :

— حقك كممول تدفع من جيبيك ..

وعاد يقول ساخطا :

— لا يهمني ما أدفعه .. ولكن كل ما يهمني هو أن أستكمل

إحساسى بالمسئولية .. وهى مسئولية لا تتحقق إلا إذا كنت أحلها

معكم .. ونعيش كلنا في سر واحد .. إن ما تخفونه عن البوليس

لا أقبل أن تخفوه عنى .. وإلا كنت بينكم متها بأقذر تهمة ..

ووضع يده في جيبه وأخرج مبلغا من أوراق النقد وعاد بكلماته

الساخطة :

— اسمعى .. هذه مائة جنيه .. لا يهمني أن أعطيها لك

أو أرميها في الشارع .. فإذا لم نصارحى بكل التفاصيل وبكل

الأساء فسألقيها في الشارع ..

وقالت في إصرار :

— لن أصارحك إلا بما اتفقتنا على أن أصارحك به ..

وهذا قليلا وقال في صوت مبجوح :

— كأنكم اتفقتم على طردى من بينكم ..

وصاحت كأنها ترجوه أن يصدقها :

— لا .. كيف تطردك وأنا ألجأ إليك لتساهم معنا ..

وقال ساخرا :

— ربما كانت الشلة تجازف بإيقاتك .. على أمل أن أشفق

عليك ولا أبلغ الحكومة عنك .. ويظلوا هم في أمان .. أمان مني
ومن البوليس ..

ثم رفع يده بالجنهات التي تحملها ولوح بها أمام عيني فهي
قائلا :

— حتى لا تتصورى أنى أطالب بأن أكون معكم نظير ما أدفعه
للحركة .. وبما أنكم تعدونى عنكم فلن أعيد هذه الجنهات إلى
جيبى .. سألقيها في الشارع .. وأجرى أنت ورائها لتجميعها كأنك
وجدتها صدقة حتى لا يكون لى فضل تسليمها لك .. للحركة
الوطنية ..

وقذف بالجنهات من نافذة السيارة لتطير في الهواء وتسقط في
الشارع ..

وصرخت هي :

— إن الحركة ما دامت في سبيل الوطن فلن تذلل نفسها أبدا أمام
الجنهات ولو وصلت إلى الملايين .. إن عليك أنت أن ترجونا وتتوسل
إلينا حتى نقبل جنهاتك ونشرها بمساهمتها في حركتنا .. وهو شرف
لك لا يمنحك أى حق .. إلا إرضاء ضميرك الوطنى .. لو كان لك
ضمير ..

وقفزت من داخل السيارة تجرى مبتعدة عنه ..

وأطلق سيارته في سرعة مجنونة مبتعدا عنها ..

والجنهات على الأرض في انتظار اليد التي تصل إليها ..

وزوبعة من أفكار مصطفى تعصف في رأسه .. ولكنه لا يخطئ
نفسه ولا يلومها .. لقد كان على حق .. إنه لم يكن يدفع تبرعا
للحركة الوطنية .. ولكنه كان يدفع إحساسا بمسئوليته عن المساهمة
في الحركة .. إنه لا يساوى أى شيء بجنهاته .. ولكنها تساوى
بقدر ما يذل من فكره ومن المجازفة بنفسه في سبيل وطنه ..

ورأوته ابتسامة عابرة وهو يتصور كأنه نسخة طبق الأصل من
أبيه .. إن أباه يعتبر كريما في توزيع التبرعات والخيرات .. في متهى
الكرم .. ولكنه لا يدفع مليا واحدا إلا إذا اطمأن إلى مصير هذا
المليم .. حتى أنه لا يتبرع إلى أى جمعية خيرية إلا إذا قام بدراساتها
واستكمل معرفة كل خباياها وأسرارها وتضامن مع أعضائها وعرفهم
واحدا واحدا وعرف ما يقوم به كل منهم في تحقيق أهداف الجمعية ..
وكثيرا ما يرفض المساهمة أو التبرع لأنه لا يطمئن إلى مصير الأموال
التي يتبرع بها .. خصوصا إذا كان التبرع لهيئة حكومية .. إنه
لا يثق في الضباط الحكومية رغم أنه يتعامل معها .. فإذا كان
مصطفى قد توقف عن أن يدفع للحركة الوطنية التي يقوم بها
الطلبة .. فلاهم لم يعودوا يطمثون إليه .. ولا يحاولون إقناعه
بكشف أسرارهم فقد هو الآخر اطمثتانه إليهم .. لقد طردوه ..
وإن كانوا لا يزالون يريدون أن ينالوا جنهاته من بعيد .. ولكنه يحس
بأنه لو استجاب لهم فكأنه يلقي بجنهاته في هواء مجهول .. وقد
ألقاها في الهواء فعلا بدلا من أن يلقيها في يد هي ..

ودخل مصطفى على أبيه وهو متجههم الوجه غارق في الغيظ الثائر
وقال فوراً :

— لن أدخل امتحان الكلية ..

أمريكا فأننا متأكد من أنك ستنتج هناك في أى امتحان .. وتستطيع
أن تسافر خلال هذا الأسبوع .. سأسافر معك ..

ومصطفى الدسوقي جالس بجانب أبيه رضوان الدسوقي على
مقاعد الدرجة الأولى في الطائرة التي تحملها إلى أمريكا ..

وكانت قد مرت أيام هدأت فيها نزعة الغيظ النائر التي كانت
تسيطر على كيان مصطفى .. ولكن أفكاره لا تزال تنهض بالمرارة
ولا تستطيع أن تتحرر خارج الموضوع الواحد الذي تدور فيه ..
موضوع أيامه مع أصدقائه الطلبة الغلابة الذين كانوا قد جدوا على
حيثته ونقلوه من فراغ عمل ومزهد يعيش فيه إلى دنيا زاخرة بالمسؤوليات
الكبرى .. مسئولية المستقبل الوطنى كله .. مسئولية حمل مصير كل
الناس .. كل الشعب .. وقد هزم في هذه الدنيا .. لا .. لم يهزم
بشخصيته وبطبيعته الذاتية .. ولكنها هزيمة الكيان الذى ولد به وفيه
دون أن يختاره .. كيان الأغنياء .. إنه كالرجل الوسيم الذى
لا فضل له في وسامته .. أو كالرجل القبيح الذى لا ذنب له في
قبحه .. ولكن هكذا قد ولد كل منهم .. وهو أيضا ولد هكذا ..
أحد أفراد مجتمع متهمى الثراء .. دون أن يكون قد اختار لنفسه هذا
المجتمع .. بل إنه لم يكن يفرق بين حاله وحال أصدقائه الغلابة ..
وكان يعيش بينهم كأنه يعيش دنيا طبيعية خلقها الله وجمع فيها بين
السادة الأثرياء والغلابة الخاضعين للسيادة .. دون أن يستصبح الثرى
أو الغلابان الاستغناء عن الآخر .. إنها دنيا واحدة .. وقد كان
متجاوبا متهمى التجاوب مع الغلابة في هذه الدنيا .. وكان يحس أن

وقال أبوه في دهشة :

— لماذا ..

وقال كأنه يستغيث به :

— لأنى سأسافر إلى أمريكا ..

وقال الأب وهو لا يزال دهشا :

— لماذا لا تسافر بعد الامتحان ولم يبق عليه إلا أسابيع

ومصطفى ينظر إلى أبيه كأنه مفتاظ منه .. لقد كان أبوه يلج في
اختطافه من بين طلبة الجامعة المصرية ليلقى به بين طلبة إحدى
جامعات أمريكا .. فلماذا يخفف من إلحاحه الآن ويطلب منه أن
يستمر في الجامعة المصرية حتى ينتهى من الامتحان .. وربما كانت
العقولة التجارية المسيطرة على أبيه لا تريد أكثر من أن تستفيد من
نفقات تعليم ابنه طوال العام بأن يحصل على شهادة نجاحه في
الامتحان ...

وقال مصطفى في عنف :

— إنه امتحان لا يفيدنى ولست في حاجة إلى النجاح فيه ..
مادمت سأنتقل إلى أمريكا وأمتحن هناك .. فعتى أسافر ؟

وقال الأب في فرحة كبيرة كأنه يزغرد :

— إنك كما أقول عنك دائما .. لا تعرض نفسك لامتحان
وتنتج فيه إلا إذا أردت .. ولا يمكن أن تنتج في امتحان مفروض
عليك بمجرد استكمال مظهر النجاح .. ومادمت تريد الآن السفر إلى

الغلبة أيضا متجاوبون معه . . إلى أن حدث وأفرج عنه دون الفقير الغلبان . . فلا يمكن أن يعتبر هذا حقا . . إنه سيطرة ظلمة تفرسها طبقة الأثرياء . . وهذا صحيح . . ولكن ما ذنبه هو إذا كان قد ولد هكذا . . من الأثرياء . . بل إنه هو نفسه لم يكن يتمنى أن يفرج عنه دوره الغلبة . . كان يتمنى أن يبقى معهم يعاني ما يعانون إلى أن يحققوا الهدف الأكبر للحركة الوطنية . . وإن كثيرا من زعماء الحركات الوطنية كانوا من كبار الأثرياء . . بل إن زعيم الحركة الماركسية التي ترفض الثراء وتطالب بالمساواة في الفقر يعتبر من الأثرياء . . ومن سبقه كان أيضا من الأثرياء حتى كان يسمى « الباشا الأحمر » . . أى أن الثرى يمكن أيضا أن يكون ماركسيا . . ولو أنه لم يظهر من بينهم من فرض الماركسية على البلد فعلا . . فقد كان ماركس نفسه فقيرا غلبانا . . ثم ما هو وضع أبناء زعماء الثورة الذين ماتوا ولا يزال الطلبة يهتفون باسمهم . . إنهم كلهم من أصحاب الملايين . . يبدأ الزعيم بقيادة الثورة وهو غلبان إلى أن يملك السلطة ثم يموت وقد ترك أولاده كلهم من أصحاب الملايين . . وهو مجرد واحد من هؤلاء الأبناء وإن كان أبوه لم يكن يسعى إلى الزعامة ولا يسعى حتى اليوم إلى تحمل مسؤولية القيادة الوطنية . . ولكنه ثورى من جيل الثورة . . فلماذا طرده زملاؤه الغلبة من بينهم بعد أن أفرج عنه وحده . . إنهم أغبياء . . فقد كان يعد نفسه بعد خروجه من السجن لمزيد من التطرف والمجازفة بنفسه في الحركة الوطنية حتى يعود إلى السجن . . وكانوا يستطيعون في هذه المرحلة أن يتمسكوا بصداقته أكثر حتى يستغلوا ملايينه في تمويل الحركة بدلا من أن يتركوها لأبيه يستغلها وحده في تحقيق أهدافه الشخصية . . لقد كانوا أغبياء عندما طردوه من بينهم . . كانوا ضحايا الشعارات التي ترفض الواقع دون أن تحقق

واقعا آخر . . ولكن . . من يدري . . ربما كانوا على حق في طرده من بينهم . . ربما لم يكونوا يخافونه . . ولكنهم يخافون أباه وهو يحاول أن يبعد ابنه عنهم . .

وقر ابتسامة مرة على شفتى مصطفى وهو يتذكر نبي . . لقد كانت الشخصية الوحيدة التي ظهرت في حياته حتى اليوم وتمده بهذه الراحة الكاملة . . وهذا التعلق بأمال كبيرة . . كلما التقى وجهه بوجهها . . رغم أنه ثرى وهى غلبانة . . وهو متأكد أنها كانت متعلقة به هى الأخرى . . ربما كانت تحس بنفس الراحة وتتعلق وهى بجانبه بنفس الأموال . . وإذا كانت قد بدأت تتباعد عنه بعد أن أفرج عنه فقد كان يحس بأن شوقها إليه يربطها به . . ولكنها كانت أيضا ضحية الشعارات في تمسكها بتفانيها في خدمة الحركة الوطنية كما يصورها لها شلة الأصدقاء . . حتى اضطرت أن تضحي بكل عواطفها عندما أصبح عليها أن تختار بين الاستسلام له أو الاستسلام لشلة الأصدقاء المجاهدين تحت ضغط إحساسها الدائم بأنه غنى ابن المليونير وهى الغلبانة ابنة غلبان وزوجة غلبان . . وقد استسلمت للغلبة وتركت جنينها تطير في الهواء . . وطردته وطردت نفسها من دنياه . . ترى هل سيجد في أمريكا فتاة توفر له كل هذه الراحة وكل هذه الآمال مما كانت توفره له نبي . . وكان والده رضوان الدسوقي لا يكف عن الكلام ولكنه لم يكن يعتمد صد أفكاره ليتبع ما يقول . . إلى أن سمعه قائلا :

— إن أمريكا هى المستقبل . .

وانطلقت في ذاكرة مصطفى فورا كلمات الحثاف الذى كان يهتف به الطلبة خلال المظاهرات . . يا أمريكا لى فلوسك . . بكرو

الشعب يدوسك . . . وابتمس بينه وبين نفسه . . . إنه الآن في طريقه
ليدوس أرض أمريكا بقدميه . . . ولكنه لا يريد أن « تلم » أمريكا
« فلوسها » . . . إنه هو وأباه في حاجة إلى فلوس أمريكا . . .

والتفت بعينه إلى وجه أبيه كأنه يبحث فيه عما يوحى به

المستقبل . . .

تمت

لقد كنت متأكدًا أنك ستفعل ذلك . . .